

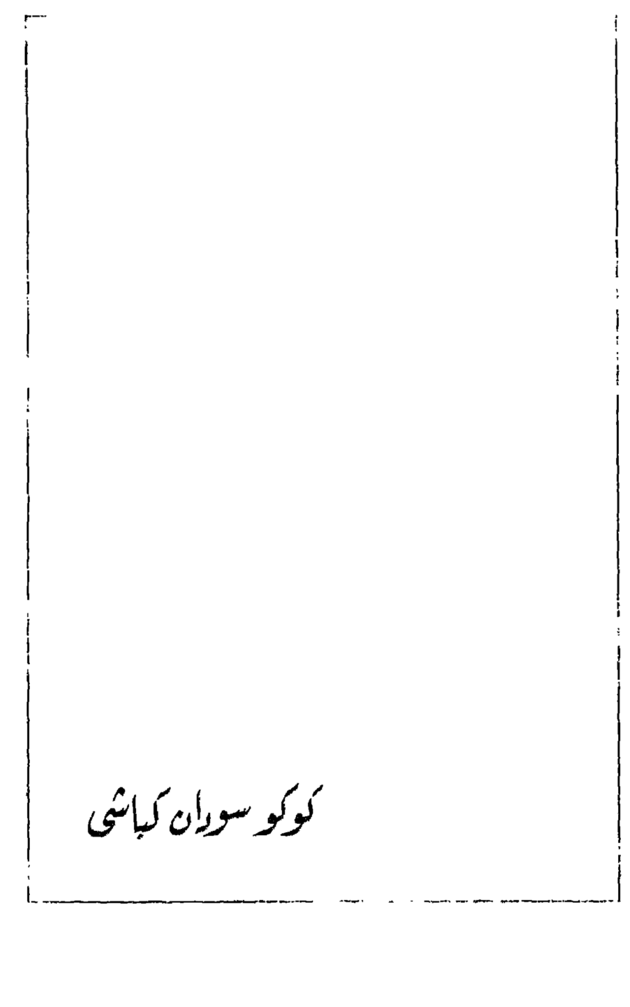
سلسلة الأدب

كوكو سودان كباشي

رواية

سلوى بكر





کوکو سوران کباشی



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف

د. إيناس حسني

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومي للشباب

وزارة التنمية الإقتصادية

كوكو سودان كباشي

رواية

سلوى بكر



كوكو سودان كباشي

لوحة الغلاف للفنان: نجيب أسعد

كإضافة جديدة لكتاب الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

بكر، سلوى .

كوكو سودان كباشى: رواية / سلوى بكر .-

القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

١٩٦ ص : ٢٠ سم. (أسرة ٢٠٠٨)

تدمك : ١ - ٤٢٠ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - القصص العربية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٢٤٤ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978-977-420-420-1

ديوى ٨١٣

توطئة

منذ ثمانية عشر عامًا انطلق مهرجان القراءة للجميع على جناح فكرة أن الكتاب هو عماد المعرفة الرئيسى، والثقافة الرفيعة، وأن الكتاب ينفرد عن غيره من أدوات التثقيف ومصادر المعرفة بقدرته على تنمية الفكر وصنع العقول المستنيرة، وتكوين الشخصيات المتميزة، وفتح آفاق الاستنارة أمام الملايين، والإسهام فى تشكيل وجدان الأمة، وحفظ تراثها، والوصول إلى رؤى مستقبلية لنهضتها.

ولقد حرصت مكتبة الأسرة طوال أعوامها السابقة كرافد رئيسى للمهرجان على تحقيق الهدف النبيل من تأسيسها.. ذلك الهدف الذى تحدد فى طرح العبقرية الإبداعية والفكرية والعلمية للمجتمع المصرى المعاصر، وفتح نوافذ على الفكر والإبداع العالمى، وإقامة جسور بين الحضارات المختلفة، والتعرف على ثراء التاريخ الفرعونى والإسلامى، وأخيرًا تحفيز الأجيال الجديدة على القراءة حتى تصبح عادة، بل ضرورة ملحة تترسخ أهميتها فى الأذهان من خلال كتب عظيمة الفائدة، تباع بأسعار رمزية فى متناول الملايين.

ولأن وصول الكتاب إلى كل مكان فى مصر سيظل حلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك، راعية القراءة للجميع. فلقد أعلنت هذا العام مبادرتها الجديدة بإهداء مليون كتاب مجانًا للمجتمع. ولأن مهرجان القراءة للجميع يتخذ شعارًا مختلفًا كل عام يتواءم مع الرسالة التى

يهدف إلى تحقيقها وتنوعها وتطورها عامًا بعد عام، فإن مكتبة الأسرة تتخذ توجهًا عامًا فى اختياراتها للكتب، يستهدف دائمًا تحقيق وعى عام متجدد يطور القوى الاجتماعية، ويقوم على منظومة قيم تتلخص فى تعميق دور العلم والتفكير العلمى، وتعزيز الديمقراطية، والتعددية وترسيخ قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وتأكيد قيمة التسامح وثقافة السلام، وترسيخ قيمة دور المرأة، وقيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع المصرى. ولقد تم استحداث قيمة جديدة هذا العام هى تعزيز تجليات الوطن وقضاياه، وذلك لمواجهة متغيرات خرائط الصراع المضاد، الذى يسعى إلى التفتيت بإشعال الفتن والانقسامات التى تحول الانتماء الوطنى إلى ولاءات لأعراق وعقائد ومذاهب، وفق تصنيفات قاطعة تعمل على تعبئة الناس وقولبتهم لكى تضعهم فى موقف التضاد بعضهم لبعض على سبيل الاستبعاد والاستعداء للنيل من سيادة الدولة الوطنية، وانتهاك دعمها للمواطنة والديمقراطية والمجتمع المدنى ومشروعية التعايش، ولذا ستظهر تجليات الوطن وقضاياه وتتجسد فى الإبداعات التى ستطرحها مكتبة الأسرة هذا العام.

لقد نهض صرح مكتبة الأسرة على أعمدة المكتبة العربية، وثراء تحفها الإبداعية والفكرية، واكتشاف الأقلام الموهوبة الشابة، فالتف الجميع حوله كواحد من أكبر المشاريع الثقافية فى تاريخ مصر الحديث، نأمل دائمًا أن يحقق أحلامه العظمى، وأن يساهم مساهمة فعلية فى نهضة المجتمع.

مكتبة الأسرة

تقديم

سلوى بكر كاتبة شديدة التميز، احتلت مكانتها فى المشهد الإبداعى المصرى بالعديد من الأعمال القصصية والروائية الفارقة مثل مجموعاتها نونا الشعنونة.. عجين الفلاحة.. ورواياتها سواقى الوقت.. العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء.. وصف البلبل.. عن الروح التى سرقت تدريجيًا.

وتواصل سلوى بكر مشوارها الإبداعى فى استنطاق المسكوت عنه فى التاريخ المكتوب ابتداءً من روايتها الشمورى حيث يجوب قلمها ثنايا التاريخ عن المهمش والخفى وإماطة اللثام عنه، وعقد اشتباك بين الواقع/ الحاضر، والتاريخ/ الماضى، ففى رواية كوكو سودان كباشى تلتقط واقعة تاريخية فى التاريخ المصرى الحديث، قلما تحدثت عنها كتب التاريخ، وهى الحرب الأهلية فى المكسيك، والتى خاض غمارها أورطة من الجيش المصرى تتألف من الجنود المصريين والسودانيين والنوبة، خلال الفترة من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٧.

وخلال أربع سنوات كاملة، أقحم الجندى المصرى والسودانى، الذى اقتيد من وطنه كالعبيد، فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، ومن أجل ماذا!؟ لا شىء سوى أن تمتلئ خزائن خديو مصر وملوك أوروبا بالذهب والمال.

وتنبنى الرواية على مستويين أساسيين من السرد، الأول هو المستوى الواقعى الحاضر، ويتمثل فى بطلة الرواية «خالدة» تلك الفتاة المصرية المتورطة فى حياة لم ترضها لنفسها، وإنما ارتضاها لها أبوها الذى فقد ساقه فى حرب الأيام الستة ١٩٦٧، فعاشت حياتها على نفس

إيقاع ذلك الأب المعاق، تحت ظل الحنان السلطوى، حياة بطيئة كحركة السلحفاة، وراكدة كبركة، تفتقد المغامرة والحلم والرغبة، وما إلى ذلك من الأمور التى تعطى الحياة معنى.

حتى بعد وفاة الأب عاشت خالدة برفقة عمتها التى تنتمى إلى نفس عالم الأب، وإن كان من زاوية أخرى، فهى تكاد تكون صماء ومن ثمّ فالتواصل بينهما شبه منعدم، ولذلك فإن خالدة تخلت عن حلمها بأن تكون رسامة انصياعًا لنصيحة الأب بأنه «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة» فاتجهت إلى دراسة الحقوق، وتعمل محامية بعد تخرجها، فتغرق نفسها فى سبيل من القضايا ظنًا منها أنها تعطى لحياتها معنى، ولعل أهم هذه القضايا قضية محمد عبدالحفيظ بركات الذى أقام دعوى ضد أجهزة الأمن لقيامهم بتعذيبه، فتحمل خالدة هذه القضية على عاتقها كما يحمل سيزيف صخرته.

ولكن تتغير حياة خالدة عندما تلتقى برودلفو على متن الطائرة، ذلك الشاب المكسيكى الذى يحمل فى عروقه مزيجًا من دماء العالم فهو ألمانى ومن أب وأم مكسيكية، وجده لأمه مصرى نوبى، وجدته لأمه ابنة امرأة من الهنود الحمر أنجبتها من سيدها النرويجى الذى جاء من شمال أوروبا لينهب ثروات العالم الجديد، وجاء رودلفو إلى مصر باحثًا عن أهله المصريين، ومن ثم تتبدى علاقة رودلفو بخالدة كأنها لعبة ماكرة لعبها القدر بوضع كل منهما فى طريق الآخر.

ومن خلال هذه العلاقة يطل المستوى السرى الآخر المتمثل فى المستوى التاريخى، من خلال أوراق الشيخ عثمان جد رودلفو، وفيها يسرد الشيخ عثمان حكاية الجنود المصريين والسودانيين ، الذين جلبوا من الشرق إلى المكسيك، ليتحولوا إلى عبيد لدى سادة العالم فى أوروبا، وهنا تطل شخصية كوكو سودان كباشى ذلك الفتى النوبى ، الذى اصطيد كالحيوان وانتزع من وطنه النوبة تمامًا كما فُعل بالعديد من الأفارقة الذين شيدت الحضارة الغربية على عظامهم.

وتقدم مكتبة الأسرة هذه الرواية عن طبعتها الأولى الصادرة عام ٢٠٠٤.

ـ ١ ـ

أوراقي

حتى وقبل أن يبحر، إبحاره النهائي في محيطات العدم، بأيام قليلة، كنا ـ هو وأنا ـ مانزال وكعهدنا دومًا، نمارس لعبتنا الأثيرة القديمة، التي عوّدني على لعبها معه منذ طفولتي الأولى الغريبة، كنا نتشارك فيها أيًا كان ما يفعله أو يشغله: واقفًا يثير دوّامات مكرونة لسان العصفور في وعاء الحساء، أو أمام مرآة الحمام مجتثًا حشائش ذقنه السوداء العنيفة، أو منحنيًا جاهدًا بالفرشاة كي يحاكي حذاءه المرآة، تهيئًا لواحد من لقاءاته الغرامية المزمنة، كان ينشد بصوت قوس قزح محاولاً الوصول إلى فريد الأطرش.

ـ يا زهرة في خيالي.

فأرد بدوري: رعيتها بفؤادي.

كنت كثيرًا ما أخرج الكلمات من فمي ملحونة بمزيج من التأفف والملل، فيومًا بعد يوم وسنة وراء سنة، كنا نتحاور حبًا ولعبًا بكلمات هذه الأغنية التي بدت لي مع مرور الوقت وكأنها أحد الواجبات المدرسية الثقيلة المفروضة عليّ فرضًا والمكرورة بإزمان، لكن ذات مرة وعند ذلك المساء المحفورة تفاصيله على

مسلة الذاكرة الأبدية في داخلي، وعندما ألقى برأسه العامر ببياض الزمن إلى الخلف على مسند كرسيّه الهزاز، تحت الشباك الملامس شيشه لفروع شجرة المانجو العتيقة، أدركت وقتها أننا لن نغني أغنيتنا القديمة بعد ذلك أبدًا، وكنت خلال ذلك قد شعرت بنفاد هواء البيت كله فجأة حتى كاد صدري أن ينطبق بعضه على بعض وبت على وشك الاختناق بينما انقطع التيار الكهربائي فأظلمت الدنيا في عيني ظلامًا على ظلام، أما قططه الخمس الأليفة: بندق وفستق ومشمش وفلّة ورزّة، فقد بدأت تموء مواءً موحشًا مؤثرًا، دفع زوج الكناري للصداح بلحن جنائزي مهيب داخل قفصه المعلّق قرب شبّاك المطبخ، ثم بدأت عيناي تمطران مطرًا عنيفًا، دفع السمكات الذهبيات الست، والثلاث السوداوات الكانسات للفضلات إلى الخروج من كرتها المائية الزجاجية تاركة محيطها المحدود، والسباحة في أرضية الغرفة الغارقة بفيضان دموعي، ورغم ذلك كله فإن شعورًا هائلاً بالغضب تملكني وظل يلازمني منذ ذلك الحين وحتى الآن، فأنا أظن أن ذلك الرجل الذي هو أبي، أفسد حياتي بالكامل، وتركني في نهاية الأمر، أتجرّع عذابات عزلة المغتربين، ووحدة الساخطين على الدنيا، والذين لا يعجبهم العجب ولا حتى الصيام في شهر رجب كما يقول المثل الشائع.

لقد ظل يقنعني دومًا، وبطريقته القطيفية المهيمنة والمدغدغة للحواس، وهو يضمني إلى صدره مرّة أو يمسّد شعري بحنان أبوي دافق مرة أخرى بأن الكمال هو الغاية والهدف في هذه

الحياة ولهذا فأنا لا أصلح للرسم والفنون الرفيعة لأني كما قال موهوبة جدًا في الرسم "ولكن يا حبيبتي، هل ستكونين يومًا مثل محمود مختار أو بيكاسو مثلاً؟، هل تحبين أن تكوني رسّامة والسلام؟ فنانة مثل عشرات الفنانين الذين لا ذكر لهم ولا صيت؟ انظري إلى حالتي، أنا صوتي جميل يشبه صوت فريد الأطرش، ولكن هل سأكون يومًا مثله أو مثل أم كلثوم؟ لقد فضّلت أن أكون مديرًا للحسابات في بنك على أن أكون مطربًا محترفًا، يقول الناس عنه بعد سماعه: "يعني! لا بأس به على أية حال" وهكذا ووفقًا لنظريته التي لا ترضى بالوسطية أو أنصاف الحلول في الحياة، دفعني لدراسة مواد لا أظن أنني أحببتها يومًا ــ مثلما لم أحب صورتي في المرآة ــ إسمها القوانين، وبقيت طوال فترة دراستي لها في كلية الحقوق أشعر بأنني لا أنتمي إلى عالم الحقوق، وأن كل ما أتعلمه في هذه الكلية هو في الحقيقة أساليب رفيعة معقدة ابتكرها البعض للتحايل على البعض الآخر في هذا العالم، كما أن مستقبلي العملي وما حققته بعد تخرجي واشتغالي بالمحاماة، إنما كان يرجع إلى مهارتي في هضم تلك الأساليب والطرق واستخدامها كسلاح رادع للآخرين.

ضغينتي الكبرى والتي طالما حملتها لأبي هو أنه نجح وعلى نحو غير مرئي أو محسوس، في إبعاد كل الرجال الذين حاولوا الاقتراب مني، منذ أن صرت شابة يافعة تلفت أنظارهم، فكلما توهمت أنني وقعت في غرام أحدهم، سرعان ما يداخلني شعور بأنه بالونة ملونة ضخمة ستنفجر وتتبدد عند أول شكة دبوس لها،

فالمقارنـــات بين أي من الذين عرفتهم وبين أبي سرعان ما كانت تـتداعى بداخلـــي، وتحول بيني وبينهم وتتحول إلى قوة مركزية طـــاردة تنفرنـــي من كل شاب مهما كان، حتى ذلك الذي بدا لي كـــامل الأوصاف ذات مرة، أو الرجل الناضج المقطوف لتوه من شـــجرة، سرعان ما أقنعت نفسي بأنه ثقيل الظل، روحه لا تعرف الخفة، وبدا لي ككائن بلا طعم أو لون أو رائحة كفاكهة هذه الأيام المصنوعة صنعًا بالأسمدة وهرمونات الزراعة.

كـــان أبـــي يمدنـــي بشـــحنات حنان خرافية وعواطف أبدية مـــتطرفة، ظلت تلازمني حتى بعد مماته، جعلتني أظن دومًا أنني لـــن أجدهـــا لـــدى أي إنســـان آخر حتى ولو مات في دباديبي، فالتشـــكيك في جدّية مشاعر الرجال الآخرين، وعدم أخذ التنهدات والزفـــرات والكلمـــات الرقيقة الحنونة وحتى الدموع أحيانًا بمأخذ الجد، ظل اللواء الخفاق على ربوع روحي طوال الوقت، وقد ظل هـــذا الأب ــ وهذا ما ظننته طويلاً ــ مكرّسًا حياته لي بعد وفاة أمي عندما كنت طفلة رضيعة لم يتجاوز عمرها شهورًا قليلة، ولم يـــتزوج بعـــد وفاتهـــا قـــط، لكن ذلك لم يحل بينه وبين عالم من الحبيبات والعشيقات، بت أدرك وجودهن في حياته شيئًا فشيئًا كلما كـــبرت ووعيت، وكانت هاتيك المعشوقات من بنات الجيران، أو أخوات أصدقائه، أو حتى خادمات جميلات مستقدمات من الريف كان يمكن إضافتهن إلى مجموعته النسائية الخاصة.

ولعـــل عينـــيه الجميلتين العميقتين حقًا، وملامحه الذكورية القويـــة وجاذبيته الشخصية المؤثرة، كانت مجتمعة وراء كل ذلك

العشق وذلك التدله الشديد من النساء به.

غير أن وسامته وجاذبيته هذه لم تكن على قائمة ميراثه الذي تـركه لـي، وهو ما تلخص في معاش محدود لمدير حسابات في بـنك فرنسـي شهير جرى تأميمه بعد **ثورة ١٩٥٢** وخمس قطط رومـية مخلطـة على أنواع بلدية شاركت في **رثائه** كما اسلفنا، وكانـت هذه القطط الخمس في الأصل زوجًا واحدًا فقط استوطن شقتنا الأرضية، لكنه سرعان ما استباحها مع ذراريه، وإضافة إلى ذلـك كانـت هـناك عمتي الطيبة الثرثارة المصابة بربو مزمن، وبسؤال عن الهدف من الوجود، خصوصًا وأن ربوها طالما دفعها لـتأدية بـروفات وفاة بين حين وآخر؛ ثم هناك قارورة الأسماك الذهبية التي كثيرًا ما كان يتفاخر بها المرحوم لأنها مصنوعة من الكريسـتال التشيكي الفاخر، أهداها له صديق ضابط كان قد سافر في بعثة تدريب عسكرية إلى براغ أيام الودّ الاشتراكي بين مصر والكتلة الشرقية.

سـاقه الصـناعية، كانت من دعائم التركة أيضًا، فهي الساق التـي مُنح لأجلها نوط الشرف العسكري، بعد مشاركته كضابط احتـياط مجـند في حرب ١٩٦٧ وبعد تخرجه من الجامعة، ومن فضـائل هـذه الساق أنها زكّته للحصول على وظيفة في بنك، ما كان من الممكن أن يحصل عليها إلا بالرشاوي أو بالوساطة، لكن أذرع الجـيش الممـتدة إلـى كـل مكان على الخريطة المصرية وخصوصًـا بعـد أزمة مارس الشهيرة، كانت قادرة على تعيينه، لـيس في بنك مرموق فقط ولكن في أي مكان يرتئيه أيضًا، وإلا:

إلـــى أين يذهب ضحايا الحروب الفاشلة من المعوقين والمشوهين لـــولا تلـــك اليد الطولى المانحة، والسلطة العاتية الرحيمة لجيش الــتحرير؟ عمومًا لم أضع الوقت وقررت ألا أستسلم للحزن وأن أكـــون امـــرأة عملية، فتصدقت على روحه بالعصفورين والساق البَركة، والحوض الكروي بسمكاته جميعًا، ثم أقنعت القطط بالتي هـــي أحســـن أن تسعى في مناكبها ولا تتوقع مني أن أطعمها أو أخدمهـــا أو أزيـــل فضـــلاتها، وأنتـــي لـــن أسمح لها باستعبادي واســـتغلالي بلطفهـــا وظرفها وحركاتها اللذيذة ونظراتها البريئة المعـــبرة مـــثلما كانت تفعل مع المرحوم فيضعف أمامها ويرضخ لكـــل طلباتها ورغباتها؛ ويبدو أن الفكرة التي اقترحتها لم تعجب جماعـــة القطط اللئيمة كليًا فقد استطاعت أن تملي عليَّ شروطها في النهاية، فوافقت على مضض أن تنط وتدخل من شبابيك الشقة الواقعة في الدور الأرضي لتبيت الليل في الداخل، على أن تمضي نهارها خارجًا في التسكع والتشمس والتصيد في الحديقة الصغيرة أمام العمارة ومناورها والشوارع المحيطة بها. عمتي، على رغم عجرفتها ونزقها، اعتبرتها أثمن ما في تركة المرحوم، خصوصًا بعـــد أن أغلقـــت شقّتها بالضبّة والمفتاح، وجاءت بكامل إرادتها لتعيش معي، حتى لا أظل وحيدة غلبانة، لكن ذلك لم يمنع من عقد صداقة وحسن جوار بيننا، فبعد خبرة ما يزيد على ثلاثين سنة من التعامل معها، كنت مؤمنة بأنها الوجه الآخر للعملة التي هي أبي، فهي امرأة ــ على الرغم من ربوها ــ دائبة التأنق، محبة للرجال ولا تـــتورع عـــن خـــوض أيـــة علاقة تعن لها بواحد منهم، وقد

تزوجــت مرتين، وحازت بعد ذلك على لقب مطلقة مزمنة، وهي لا يعجــبها العجــب، ولا حالـــي، خصوصًا شكلي وطريقة لبسي ورفضي إطالة شعري والزواج، وكانت معاهدتي معها تنص على ألا تــتدخل فـــي شؤوني بالفعل أو القول أو التعليق على ما أفعل وألا تــزنّ على دماغي بمسألة الزواج بعبارات من نوع "لأنك يا خــالدة يــا حبيبتـــي كبرتِ، وسنة وراء سنة يفوتك قطار الزواج وتخنشري ولا يقدر أي رجل أن يبصّ في خلقتك".

أمـــا أنـــا فقــد تعهــدت بعــدم التدخل في أمورها الخاصة، خصوصًا في لون شعرها، حتى ولو صبغته بالأحمر الناري، وهو ما كنت أنتقده دائمًا وأرى أنه غير ملائم لسنها ويحتاج إلى عربة مطافئ كاملة للقضاء عليه، وكذلك ألا أعلّق على ملابسها الغريبة ذات الألوان اللامعة الفاقعة والتي تبدو معها وكأنها مروّضة نمور فـــي سيرك، وأن أكف عن نهرها لشربها القهوة بجنون ولتدخينها ســجائر كليوباترا طوال النهار والليل وكأنها مدخنة عربة بطاطا، ولفــتحها الكوتشينة وبعثرة فلوسها على العرافين والسحرة وقراءة الكف والودع والفنجان بحثًا عن زوج محتمل.

ورغــم كراهيتـــي لنصـــائحها، إلا أنني كنت أضعف أمامها أحيانًا لكثرة زنّها على أذني فشرعت مرّة في إقامة علاقة عاطفية مع شاب زميل لي بمكتب المحاماة، لكن سرعان ما نجح أبي في إفســادها وهـــو راقد في تربته، فرغم انجذابي الأولي لهذا الزميل ورغبتـــي فيه، إلا أن مشاعري تجاهه أخذت تبهت يومًا بعد يوم. كنـــت أعقــد مقارنات بينه وبين أبي تتعلق بعشرات التفاصيل في

شخصيته وعلاقتنا، أدت في النهاية لأن أصنفه وفقًا لها فلاحًا جلفًا لا يعرف من المدينة غير القشور، فحذاؤه ليس نظيفًا بالقدر الكافي وهو لا يستعمل مزيلاً للعرق، ناهيك عن أنه لا يضع عطرًا مهما كانت المناسبة، حتى ولو كانت الذهاب إلى السينما، ثم إنه لا يتأنق في ملابسه مثلما كان أبي، ولا يمنحني تلك الأحاسيس التي طالما أغدقها عليَّ أبي بلا حدود والتي أشعرتني بأنوثتي دومًا، ولم يعاملني مثلما كنت أرى أبي يعامل نساءه. المرأة التي هي كل نساء الارض، كاملة الأوصاف والخصال والمحاسن فلا قبلها ولا بعدها جادت الأرض او ستجود بمثلها

لقد أشعرني أبي ومنذ بداية طفولتي بانني الزهرة الوحيدة في حديقته وأنني المرأة الصغيرة الأنثى بالفطرة، فكان يحرص على تمشيط شعري بنفسه ويتفنن في ابتكار تسريحات تلائم خصلاته العصية المتمردة وتبرز ملامح وجهي، وعندما بدأت طور المراهقة، وبدأ جسدي يتشكل مفصحًا بجلاء عن معالم حواء الخالدة جلب بنفسه لي حمالات صدر غالية وراقية النوع حتى لا تفسد وتترهل ـــ كما قال مازحًا معي ـــ الرمانتان النصرتان على الغصن الرطيب، ثم إنه أصر على انتعالي أحذية بكعوب عالية، كنا ندور سويا عبر مدى ساعات في الشوارع على المحال نتفحص ما في واجهاتها الزجاجية، لننتقي منها ما يلائم قدمي وألوان فساتيني، وذلك دون أن يعبأ بالوقت أو يستجيب لمللي وضيقي ونفاد صبري، ورغبتي في العودة السريعة مرة أخرى إلى البيت

كـــان ــ رحمه الله ــ يصطحبني معه أحيانًا، للقاء واحدة من عشيقاته، لتساعده في ابتياع ملابس متميزة لي من محلات أنيقة لا يعـــرفها هـــو، وكـــنا نخرج من هذه المحلات فندخل ثلاثتنا إلى السينما أو نجلس بعض الوقت، في مقهى أو مشرب لنحتسي شيئًا، وســـاعتها كان أبي يصرّ عامدًا على تدليلي ومدحي ونعتي بأنني أجمـــل فتاة في هذا العالم، ولا يبخل بكلمات دون ذلك على السيدة الجالسة معنا وكأنه يخشى أن يستثير غيرتها وحنقها.

عـــندما كنـــت أرجع إلى البيت بعد ذلك، وأتطلع إلى المرآة مـــزهوة، وقـــد رحـــت أرتدي ما ابتاعه لي، كان سطحها اللامع المصقول يفحمني بعبارة قصيرة مقتضبة "إياك أن تصدقيه!".

وهكـــذا أفســـد أبي علاقتي بذلك الشاب، وعلى طريقة "إدارة الصـــراع عن بُعد"، ولكن وللحقيقة أيضًا، فإن ذلك الشاب أذهلني بعدم درايته بما اعتبرته دائمًا من البديهيات الأولى، ووفقًا لما كان علـــيه أبي، فقد فجعني ذلك الفتى بعد أن اكتشفت أنه يظن أن لون بلوزتـــي الباذنجاني إنما هو نبيذي، كما توصلت إلى حقيقة مفادها أن أنفـــه بلا وظيفة، فهو لا يميز رائحتي الخاصة، رائحة جسدي الممـــزوجة بعطـــر "دموع الملائكة" الذي عودني أبي على إدمانه وكـــان يقول: "إنه يمنحك سحر الملائكة الخرافي، ملائكة الأرض المطيّـــبة بدمـــوع نادرة لكائنات سماوية غامضة، تخبئونها خلف حلمتـــي الأذنيـــن وفي مغارة ما بين النهدين، فتتحد كيمياء الجسد النابضة بشرايينه عند تلك المواضع وعند الرسغين، لتجذب كيمياء رجـــل واحد أثير بجاذبيته الخارقة، رجل يظل أسيرًا لذلك العطر

مدى الحياة".

لم أكن على اقتناع كامل بنظرية أبي العطرية هذه كثيرًا، بل وكانت تشعرني أحيانًا بأنه رجل داعر بالفطرة طالما بشرّ بالخطيئة وأغوى النساء وأوقعهن في حبائله، حتى بعد فقده لساقه، بل واستغل هذه الساق لتضفي عليه شيئًا من الرومانسية والتراجيديا الغرامية المؤثرة، لكن ها أنا أتعلل بهذه النظرية العطرية الأبوية، وأستخدمها أداة للإجهاز على علاقتي بهذا الشاب المسكين، الذي لم يفهم أبدًا سببًا لانقطاع علاقتنا المفاجئ، ولفتور مشاعري تجاهه، فلقد كان من الصعب عليه أن يفهم كيف أن أبي مازال مصرًّا على إقناعي حتى بعد وفاته، بأنه الرجل الوحيد المطلق الرجولة في هذا العالم، وأن كل من عداه من الرجال سيظل في حدود النسبي، وأظن أنني لهذا السبب بتّ أكرهه.. أكرهه إلى حد البكاء عليه كلما تذكرته بين الحين والحين.. ولم لا.. ألم يفسد حياتي.

وعلى الرغم من تأثير أبي الهائل على حياتي وهو الرجل الأم، والرجل الأب، والرجل المثال الذي يصعب الخروج عنه، إلا أنني والحق أقول تأثرت برجال آخرين في حياتي، وبعد مماته، صحيح أن هؤلاء الرجال، كانوا مختلفين عنه مائة وثمانين درجة، وصحيح أنهم لم يكونوا مثله مصرّين على امتلاكي واحتوائي مثلما فعل، وعلى الرغم من أنهم أثّروا فيّ على نحو مغاير تمامًا، إلا أنني لم أستطع الفكاك من إسارهم، لقد أسروني إلى الحد الذي دفعني للكتابة عنهم ذات يوم، وأنا التي ما فكرت في الكتابة، بل

وكنت أكرهها كراهيتي للبن الحليب والسمك وكتابة موضوعات الإنشاء والتعبير في مادة اللغة العربية عندما كنت تلميذة في المدرسة، وحتى كتابة الخطابات كنت أكرهها كذلك ولم أكتب منها إلا القليل عندما اضطرتني الظروف، فكتبت لأخي غير الشقيق الذي عاش مع أبيه في هولندا منذ سنوات بعيدة، وكانت تلك الخطابات نوعا من أنواع التواصل بيننا، وهمزة وصل لرحم انقطعت صلته منذ زمن بعيد، خصوصًا بعد وفاة والده ووالدي.

اشتغلت بعد تخرجي بشهور قليلة في مكتب محاماة معروف بوسط البلد، كان صاحبه صديقاً قديماً لأبي من أيام الدراسة، ونديمه في شرب الخمر ولعب القمار، وكان الرجل في مطلع شبابه من المناهضين للاستعمار الإنجليزي، شارك في جمعيات سرّية مسلحة قامت باغتيال عدد من عساكر الإنجليز، وقضى عدّة سنوات في السجن أيام الملكية لهذا السبب، وقد خرج بعدها ليفتح مكتب المحاماة هذا، وهو شقة في عمارة ضخمة تعود إلى الزمن الإمبريالي كانت أحد أملاك والده الثري، وقد جرى تأميمها بعد الثورة واحتفظ الرجل بالشقة كمكتب، وكان من مزايا عملي في مكتب المحاماة هذا، هو أنني استطعت، ووفقًا للقانون الاحتفاظ بمعاش أبي بعد وفاته، باعتباري أعمل في قطاع خاص، وقد ظل هذا المعاش هو المصدر الأساسي لدخلي المحدود، فما أتقاضاه من راتب نظير عملي بالمحاماة ضئيل ومتناقص دومًا بسبب الارتفاع المزمن في أسعار السلع والخدمات.

ذات يوم وأثناء عملي في المكتب، تعرّفت على رجل، نحيل قصير، له أنف ضخم وعينان شديدتا الاتساع بالنسبة لمساحة وجهه الصغير، وذلك من خلال قضية وكّلت للاشتغال فيها مع

زميل لي بالمكتب. كان محمد عبد الحفيظ بركات قد جاء إلينا لأنه وجـد من أشار عليه بطلب تعويض من أمن الدولة في مصر لقاء مـا لاقاه من معاناة وتعذيب. هو متزوج ويعول أسرة كبيرة العدد مكونة من سبع بنات أصرّ على إنجابهن بدأب واحدة تلو الأخرى، مراهـنًا على القادر الجبار أن يأذن ذات يوم وتكون واحدة منهن ولـدًا، ولكن محمد عبد الحفيظ بركات لم يكسب الرهان، فاضطر إلـى اعتزال لعبة الحفاظ على النوع البشري، ولربما اضطر إلى ذلـك بعدمـا أحالـته الطبـيعة إلى الاستيداع قسرًا، مدّخرة قوّته وصحّته ووقته، في سبيل قضايا أهم تتعلق بالوجود وليس بالنوع، إذ كان عليه أن يعمل ثماني عشرة ساعة يوميًا، سبعاً منها كعامل فـي الشركة العامة للحاصلات الزراعية، والبقية في تنظيف شقق وبيوت بعض موظفي وموظفات الشركة الذين استطاعوا إلى ذلك سـبيلا، وذلـك حتى يتمكن محمد عبد الحفيظ أن يلقم سبعة أفواه مفتوحة بالخبز والطعام، إضافة إلى فم أمه المسؤول عن معيشتها والتـي تقيم معه بالبيت ذاته، وفم زوجته، فهي من المستحيل أن تعمـل خـارج البيـت لتساعده وهي المرأة المسؤولة عن الطبخ والكنس والغسيل لعشرة أشخاص بالتمام كل يوم. ذات يوم، شعر محمـد عبد الحفيظ بركات ووفقًا لأقواله، بأنه شارب من كيعانه، والدنـيا في عينيه أضيق من خرم إبرة، فطلبات العيال في زيادة، وأمـه أصيبت بالفشل الكلوي وتحتاج لغسيل الكلية، وهو نفسه لم يعـد بقادر على ممارسة المتعة الوحيدة المتبقية له في الحياة بعد فقدانـه قدرته الجنسية، وهي متعة شراء كيس لب أبيض بخمسين

قرشاً وقزقزته عند انتهاء شغله بعد الظهر كل يوم، والسير إلى البيوت التي يعمل بها في ضواحي البلد، فلما فكر وفكّر، وقلّب أمره على كل وجه، وحسب حسبته مرارًا، ووجد أنها فاشلة دومًا وبلا جدوى، وتوصل إلى أن حالته ميؤوس منها في هذا العالم، ولا سبيل أمامه لمواجهة أعباء الحياة وكل هذا الهم الكبير الملقى على عاتقه، قام ودون أن يدري كيف فعل ذلك ــ وفقًا لأقواله ــ بشرب سائل التوكسافين وهو مبيد حشري فعال ويستخدم على نطاق واسع للقضاء على دودة القطن، لكنه مُجرّب ومختبر على نطاق واسع أيضًا في الريف كأفضل وسيلة للانتحار، وأرخصها أيضًا، إضافة إلى توفره في الأسواق، لكن يشاء الحكيم العليم أن تفشل عملية محمد عبد الحفيظ بركات الانتحارية الكبرى فشلاً مدويًا، إذ يبدو أنه لم يخطط لها كما يجب، فقد شاهده فلاحان بالصدفة، كانا يعبران الشارع، وهو جالس تحت شجرة الكافور على الطريق الزراعي، بينما يشرع في تجرع أولى جرعاته التوكسافينية، فسارعا إليه، ودفعا بكوز التوكسافين بعيدًا عن فمه، وعلى إثر ذلك، شاع الخبر في البلد، مما أدى إلى أن يتلقى محمد عبد الحفيظ بركات توبيخا ملائمًا يليق بالمناسبة من زوجته المصدومة من هول الخبر، وابنته الكبرى التي لم تصدق، ولامته بدورها قائلة "أنت جرى لعقلك شيء يا بابا"، ثم توبيخ أمه التي جاء دورها بعد ذلك فراحت تتصعب وتبكي مولولة وصوتها الخشن المحشرج ينعته بأقذع الشتائم ثم "يا خسارة تربيتي لك يا محمد، يا عرّة الناس، يا جلاب الجرسة، يا فاضح أمك كل يوم

والتاني"، ثم إنها صرّحت له وأمام كل أفراد الأسرة وعلى طريقة مغايرة ـ بالطبع ـ لمذيعات التليفزيون القومي، بأنه أناني، حقود، حسود، طماع، ويريد أن يستحوذ على أعز ما تملك: كفنها الذي جاعت وصامت أيامًا طويلة على مدى عمرها، بعد أن مات أبوه، وظلت تضع القرش على القرش وتدخر كل مليم أحمر لشرائه حتى يسترها يوم تقف بين يدي الله عندما يواتيها أجلها لتبعث في اليوم العظيم.

آخر توبيخ تلقاه محمد عبد الحفيظ بركات، كان من شيخ جامع البلد، الذي عنفه بكلمات سريعة، ثم رسم له كروكي صغيرا لما سوف يصيبه في الآخرة، وبالكلمات بالطبع، فأولاً: "ستدخل جهنم بالخطوة السريعة يا محمد، وتتشوّى في نارها وكأنك كوز ذرة صيفي، وبعدها يشيط جلدك ولحمك، ولما تصفي جثتك بالتمام تقدم عظامك الباقية لكلاب جهنم جميعًا لتنهش فيها، ثم إنك لن تعرض على جنة وستحرم حرمانا نهائيًا لا عودة فيه، من أنهار العسل واللبن وفواكه الجنة وخصوصًا التين والعنب والبلح الرطب" ولما كان محمد عبد الحفيظ بركات جائعًا جدًا أثناء ذلك، وعصافير بطنه لا تكف عن الزقزقة مطالبة بأي لقمة، فلم يستطع تحمل سماع المزيد من هذا، وراح يبكي بحرقة ونهنهة كالعيال، حتى أن شيخ جامع البلد، اضطر إلى إسكاته ومواساته، وهو يقترح عليه، للفكاك من بئس المصير هذا ـ الذي ينتظره حتمًا ـ أن يقوم أولاً بالمداومة على الصلاة والصوم والاستغفار كل يوم مائة وخمسين مرة، وثانيًا التصدّق بحصيرين أخضرين على الأقل

للجامع، وبأنجر فتة ولحم، حتى ولو كان من لحم الرأس الرخيص ـ وذلك من باب التيسير، وعند ذلك الحد شهق محمد عبد الحفيظ بـركات شهقة طويلة، ودخل في نوبة بكاء هستيرية جديدة، لعن خلالهـا بسـرّه شيخ الجامع، وجدوده ومن خلفه، وكذلك زوجته راضية أم البنات، وابنته الكبرى الفاجرة، والتي رآها مرارًا واقفة تحـت شجرة النبق على الجسر في آخر البلد وهي تتدلع مع كاتب بـنك التسـليف الأصلع وتحاول إغواءه، وكان هو، أبيها، يغضّ الطـرف عن ذلك أملاً في أن توقع الشاب في حبائلها ويتزوجها، ثـم لعن في سرّه أيضًا أمّه التي ما قالت له كلمة طيبة في وجهه يومًـا مـنذ صـغره، بل على العكس طالما بخست كل ما يفعله، وقللـت مـن شأنه ووضعته دائمًا في أسفل سافلي الخلق جميعًا، وقـبل ذلك كله، تمنى أن تحل لعنته على خضير البكري، جزاز الغنم، وزين الدفراوي اللذين أنقذاه من الانتحار.

بـات المسكين بعد ذلك ــ ووفقًا لأقواله ــ يتقلب في سريره دون أن يغمض له جفن وكأنه يتقلب على فرشة جمر، وقد داخله شـعور عارم بالذل والقهر من كل الأطراف، وفي صبيحة اليوم التالـي، انـتظر حتى فتح مكتب التلغراف العمومي بالبلد أبوابه، وتوجّـه إليه، ولما كان جاهلاً بالقراءة والكتابة، ولم يُعرض على مدرسـة قـط، فقد أملى بنفسه على العامل المختص الجالس في غـرفة الـتلغراف الضيقة رديئة التهوية ــ شباك واحد صغير ــ ومتهالكة الجدران، الرسالة التالية:

السيد/ رئيس الجمهورية
السيد/ رئيس الوزراء
أنا محمد عبد الحفيظ بركات، أعمل بشركة الحاصلات الزراعية، وأعول أسرة كبيرة مكونة من سبع بنات، بالإضافة إلى جماعتنا راضية عبد النبي محمود، وأمي الكبيرة منصورة البلاح وراتبي في شركة الحاصلات الزراعية مازال ١٢٠ جنيها قبل الخصم" و.. فجأة، وجد عامل التلغراف أن محمد عبد الحفيظ بركات، بدأ يرفع صوته غاضبًا وهو يضيف الفقرة التالية:

"يا كفرة يا ظلمة، يا مفتريين، يعني يرضيكم أن أسرق؟ أنهب؟ أبيع بناتي في السوق، وأسرّح الولية أم العيال في البطّال؟ أم أمد يدي وأطوف في السكك وأقول لله يا محسنين" ثم ووفقًا لرواية عامل التلغراف، فإن سيلان الشتائم التي يعاقب عليها القانون، انثال من فم محمد عبد الحفيظ بركات، وقد بدا في حالة هياج شديد، حتى إن عامل التلغراف أخذ يهدّئه وقدم له كوبًا من الماء وسيجارة رفضها محمد عبد الحفيظ لأنه لا يدخن، وقد أنكر محمد عبد الحفيظ أنه قال هذه الشتائم بعد ذلك، لكن عامل التلغراف دوّنها ــ كما قال ــ وكتبها دون زيادة أو نقصان، ثم أوهم محمد عبد الحفيظ بأنه أرسلها إلى الجهات المعنية، لكنه في الحقيقة اتصل برجال أمن الدولة، الذين جاؤوا بسرعة، ليأخذوا محمد عبد الحفيظ بركات، والنهاية كانت قضية تعذيب موجودة تفاصيلها في الأوراق التي بين يدي للدراسة والفحص والدفاع عن الرجل وطلب تعويض ملائم له من الحكومة ورجالها خصوصًا

وأن أمن الدولة تعامل محمد عبد الحفيظ بركات باعتباره واحدًا من أعضاء الجماعات الإسلامية المحظورة لأنه كان يرتدي وقتها جلابية وشبشبًا وذقنه طويلة لأسباب غير دينية على الإطلاق.

وقد أسفر تعامل أمن الدولة معه لانتزاع اعترافات منه على مدى أسبوع عن كسر مضاعف في يده اليسرى الحيوية بالنسبة له ـ محمّد عبد الحفيظ أعسر منذ الميلاد ـ وشرخ في عظم الترقوة، وقد اتضح بالفحص الطبي بعد ذلك، أن ما ساعد على حدوث هذه الإصابات، هو أن محمد عبد الحفيظ مصاب بهشاشة العظام أصلاً، وأقل ضربة أو خبطة في جسمه تكون آثارها مدمرة.

عمومًا كانت قضية الرجل الغريبة هي ما قادني إلى التعرف على عالم غريب آخر، بعيد عني تمامًا، لم أفكر في تفاصيله يومًا. لقد كانت قضية محمد عبد الحفيظ بركات هي بداية خروجي من القوقعة، فقد اكتشفت خلال بحثي تفاصيل هذه القضية، أنني عشت حياة رخوة، محدودة، بجدران بيتي وجدران الجامعة التي تعلمت فيها وعالمها الضيق المحصور ولم يكن يبتعد كثيرًا عن عالم البيت أو عما يلامس الجلد. بالتأكيد كنت أدرك أن هناك كثيرًا من الفقراء، أو أناسًا أفقر مني ـ على الأقل ـ وليس لديهم ما لديَّ، ولكن محمد عبد الحفيظ بركات قادني إلى المعنى الحقيقي للفقر: الذل والقهر والهوان، وجعلني ألامس ذلك ملامسة قوية، وأستشعر معاناة أولئك الذين يعيشونه ويتمرغون فيه، وربما كانت قضيته تحديدًا هي التي جعلتني أوافق في النهاية على الانتماء إلى

واحدة من جمعيات حقوق الإنسان، رغم أن "نهال" صديقتي وزميلتي في العمل بمكتب المحاماة، حاولت قبل ذلك مرارًا إلحاقي بواحدة من هذه الجمعيات التي تنتمي إليها لأن ـ كما تقول ـ "التجاوزات زادت بشكل لا يمكن تخيله في موضوع التعذيب وتعدي أجهزة الأمن على المواطنين وتجاوز القواعد الدستورية، ثم إننا يا خالدة شغلتنا الدفاع عن حقوق الناس ومصالحهم، ثم أن مصطفى كامل كانت مهنته المحاماة، وكذلك محمد فريد، وكل من كان له محاولة حقيقية في عمل وطني كبير لينهض بالبلد ومن فيها وخصوصًا، الناس الغلابة ومعظمهم لا يعرف شيئًا عن القانون أو الدستور وحقوقه المكفولة من خلال نصوصه".

كنت أبتسم عادة عندما تخطب نهال خطبًا من هذا النوع، طالما سمعتها تكررها على مسامعي، فأنا أكره الجمل الكبيرة والكلمات الرنانة وقد سمعتها لسنوات طوال من خلال الراديو والتليفزيون، وقرأتها مرارًا في الصحف، فالجميع يتحدثون عن الوطن، وعن المواطنين، وكلمات من نوع "يجب"، "ومن الضروري" هي لوازم مزمنة لما يقولون، ولكن ماذا يفعلون للوطن؟ أو ماذا يفعلون للناس وللمواطنين، فهذا ما لم أعرفه أبدًا، وطالما كنت أردد لنفسي بعد سماعي أو قراءتي لكلام من هذا النوع: الوطن بحاجة إلى فعل وليس بحاجة لكلام.

انتميت إلى جمعية "نصرة الحق الإنساني"، في النهاية، ليس بفضل خطب نهال ولكن بسبب تعاطفي مع المسكين محمد عبد

الحفـيظ بركات فقد تعذب الرجل وحصلت له غاية البهدلة بسبب رغبـته الإنسانية البسيطة في قزقزة كيس لب بخمسين قرشاً وسدّ جوع أسرة كبيرة لا يكفيها مرتبه الشهري لشراء عيش حاف.

هاأنـا أركض حاملة حقيبة يدي في مطار أمستردام، المدينة الهولندية التي أزورها لأول مرة بناء على دعوة من أخي، بعد أن تكفـل بدفـع ثمـن بطاقـة السفر، فوجدتها جمعية "نصرة الحق الإنسـاني" فرصة لتمثيلها في مؤتمر عقدته.كنت أسارع الخطى، لاهثة، صاعدة، هابطة داخل ممرات المطار الضخم، حتى وصلت إلى البوابة A33 حيث مكان إقلاع الطائرة المصرية المتجهة إلى القاهـرة لأجـد كلبًا بوليسيًا ضخمًا في استقبالي عند بوابة القاعة الفسـيحة المكتظة بأسلحة على أكتاف جنود مدججين يحاصرون ممرًا ضيقًا مُحددًا بشريط أسود يمر عبره الداخلون إلى كاونترات موظفـي شركة الطيران القائمين بإنهاء إجراءات سفر الركاب. كنـت قـد لاحظت مشهدًا مماثلاً أثناء مروري داخل المطار وأنا أعـبر بعض الأماكن عند قاعات المسافرين على الطائرة اليمنية والطائـرة السودانية، والسعودية والجزائرية، وكل الدول المصنّفة كراعية للإرهاب أو مُصدّرة له وفقًا لوصف الإدارة الأمريكية كما فهمت من الشابين الواقفين أمامي في الطابور انتظارًا لدورهما في إنهاء إجراءات سفرهما.

وقفت أتأمل موظفي الشركة والجنود والكلاب ليداخلني شعور

مفاجـــئ بأن ما أراه إنما هو جزء من فيلم هوليوودي سخيف، فقد بـــدا المكان أشبه بثكنة عسكرية، أكثر منه بقاعة مؤدية إلى طائرة على وشك الإقلاع، وكنت خلال ذلك أحاول التقاط أنفاسي، متابعة بعينـــي جمهور المرتحلين غير المبالين بالحالة العسكرية التي هم موضـــوعها، بينما يندفعون واحدًا إثر آخر داخل الأنبوب المؤدّي إلى الطائرة، سرت وراء الناس بعد إنهاء إجراءاتي بشعور القطيع مجرْجِـــرة أقدامي المتعبة حالمة بلحظة ألقي بجسدي خلالها على مقعـــدي المخصّـــص بالطائـــرة، (١٦ ب) والمـــدون على بطاقة تعلـــيمات الـــرحلة وعندما صرت في الطائرة فعلاً، فوجئت بأن (١٦ ب) المأمول قد تم احتلاله من قبل رجل عجوز بدين، يجلس إلـــى جانـــب امرأة تصغره قليلاً لكنها لا تقل عنه بدانة، وما إن رآنـــي أطلب منه إنهاء حالة الاحتلال لمقعدي، شاهرة في وجهه بطاقـــة الجلـــوس المدون عليها رقم مقعدي حتى بادرني بابتسامة تليفزيونـــية لا تخلـــو مـــن براءة الشيخوخة قائلاً بلطف وبطريقة مصرية لينة معهودة:

ـــ حضـــرتك (١٦ ب). طيـــب.. ممكـــن أن تقعدي مطرح "طـــنطك". هي (١٧ أ.) وأنا قلت لروحي خليها قاعدة جنبك يمكن أن تعوز حاجة لو سمحت يعني.

علـــى رغـــم أنني لا أقبل التنازل عن حقوقي عادة ـــ هكذا علمنـــي أبي ـــ مهما كانت بسيطة، واعتبرت أن ما قاله نوعًا من السـخافة أو "السـلبطة" كمـا يقـال، إلا أنني وبمجرد أن لمحت (١٧ أ)، وكـــان مقعدًا مجاورًا للشباك، حتى أومأت برأسي موافقة

علـــى أن تــبقى "طنطـــي" بجـــوار رجلها، لأن (١٦ ب) لم يكن مجـــاورًا للـــنافذة، وأنـــا أحـــب الجلـــوس إلى جوار النافذة في المواصـــلات العامـــة كالقطـــار والأتوبـــيس والمترو، فما بالك بالطائرة؟

ســـارعت بإدخال حقيبة يدي الضخمة والتي كنت قد ابتعتها قبل سفري من مصر داخل الرف العلوي للطائرة لأجلس بعد ذلك على (١٧ أ) وأربط الحزام.

بعـــض الـــناس يفضل القراءة في الطائرات، البعض الآخر يفضـــل سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام، أما أنا فاعتبرت ركوب الطائرة حالة من حالات السجن الاختياري الإجباري في آن معًا. حالـــة أشـــعر فيها أن الزمان والمكان يتوحدان عند نقطة الصفر، ليصـــبح المـــرء بعـــد ذلـــك وكأنه لا هنا ولا هناك "وهل السماء مكـــان؟". ثـــم إن حـــيز الجلوس المحدود الذي لا يسمح إلا بفرد الساقين قليلاً، يدفعني إلى تفضيل النوم في الطائرة والحلم بأرض، أي أرض أقف عليها و ـــ يا حبذا لو كانت أرض الوطن ـــ لأنها ستكون أفضل من تلك الحالة الهوائية الحتمية، لذلك، ربطت حزام الأمـــان، ونظـــرت فـــي ساعتي فوجدتها الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق ليلاً بتوقيت أمستردام.

ووضـــعت مقعـــدي فـــي وضعه المستقيم وفقًا للتعليمات، ثم أســـندت رأســـي إلـــى مسنده العالي، مُغمضة عيني تأهبًا لسُبات مأمول وأحلام سعيدة بأنني داخل مدينتي الأثيرة القاهرة.

ســـرعان ما شدني فضولي إلى حركة من توقعته جارًا على

المقعد المجاور لمقعدي، فتحت عيني لألقي نظرة: شاب طويل نحيل، ما إن انتهى من إدخالِ لسان الحزام الحديدي في عروته حتى ابتسم ابتسامة عريضة ملتفتًا إليّ هامسًا:

ـ هاللو.

ـ هاللو.

رددت تحيته مشفوعة بابتسامة لائقة، ثم أسدلت جفنيَّ ستارين على المشهد الطائر الخاطف، وقد أرجعت رأسي إلى مكانه الأول على مسند الكرسي، ودون أي تعليق داخلي على الجار السماوي المستقر إلى جانبي توًا كانت الطائرة قد بدأ صخب محركاتها العنيف يتعالى استعدادًا للإقلاع، بينما إذاعتها الداخلية تصارع الضجيج لتصل بألحان أغنية قديمة لعبد الوهاب إلى مسامعنا، وكنت بدوري أجتهد لأقلع إلى مملكة النوم المشتهاة بأسرع ما يمكن من خلال اشتباك مع عمتي في حوار سريع عن أحذيتها ذات الكعوب العالية والمقدمات الضيقة، المدببة، المسببة لآلام الساقين وتورم المفاصل، وفجأة قطع حوارنا وجه جاري، الذي طالعته منذ قليل، على طريقة مذيعي برامج الإذاعة والتليفزيون عندما يقطعون البرامج فجأة ليقولوا "هنا القاهرة"، أو يقاطعون ضيوفهم دون أن يسمحوا لهم بإكمال ما بدأوه من كلام وعرض وجهات نظرهم.

تخيلت وأنا مغمضة بأنني قد رأيت هذا الوجه من قبل، تلك البشرة الداكنة بلون البنّ المحمّص، والأنف القصير المنفرط على صفحة الوجه قليلاً، ثم ذلك الشعر الكثيف جدًا وقد سال نعومة

علـــى الجـــبهة، ثـــم تلك الشفتين الرقيقتين المنفرجتين عن أسنان إفريقـــية قويـــة بيضـــاء، رائقة ومتراصة، ولما كنت في البرزخ الواصـــل بيـــن الصـــحو والنوم، فقد تخالطت تلك الملامح مع ما عهدتـــه من ملامح سيّد الزبال الذي أخبرني ذات مرة بينما كنت أخـــرج له كيس الزبالة الأسود، بأنه رئيس فرقة موسيقية لإحياء الأفراح مكونة من إخوته الثلاثة وبعض أقاربه ، وأنه في الخدمة لـــو طلبـــت منه إحياء أي فرح، ثم سرعان ما قمت بتركيب هذا الوجه بملامحه وقد أيقنت أنها مألوفة إليّ جدًا، على محصّل قطار المـــرج القديم الذي أزمنت رؤيته لمدة ثلاث سنوات دراسية، كنت خلالهـــا أنـــتقل بالقطار من محطة عين شمس حتى محطة سراي القـــبة حيث كانت تقع مدرستي الثانوية، ثم ها هو أبي يظهر فجأة طالـــبًا منـــي أن أمسك بواحدة من قططه ليتمكن من إسقاط بعض من قطرات كلورامينفينكول في عينيها لأنها عمصّت وأرمدت.

يبدو أنني أفقت على صوت مضيفة الطائرة إذ سمعتها تقول:

ــ لحما.. أم سمكاً.. أم فراخاً؟

اعتدلـــت في جلستي بعد أن أفقت وأنزلت رفّ الطعام المثبت على الكرسي أمامي، وعندما كررت السؤال قلت:

ــ سمكا.

أخـــذت أتأهـــب للأكل بعد أن أمدتني المضيفة بوجبتيْ، بينما بادرنـــي جاري: "بشهية طيبة"، ثم وبينما كنت أمسح يدي بمنديل مصر للطيران المُعطر، سألني فجأة:

ــ أنت مصرية؟

ـ نعم.. وأنتَ؟

ابتسم بسعادة، وقال: أنا مكسيكي مصري.

ـ فعلاً؟!

هممت بالتعجب في التساؤل، وخمّنت: ولم لا؟! في السنوات الأخيرة خرج من مصر آلاف، بل ملايين الناس بحثًا عن الرزق ولا عجب إن قابلت شخصًا تزوّج من بلاد الواق واق وأنجب طفلاً مصريًا واق واقيًا.

ابتسمت لفكرتي ووجدت جاري يبتسم بسعادة أكثر وكأنه وجد شخصًا يقول له كلامًا يرغب في قوله، لأنه راح يتابع بسرعة ودون توقف:

أنا مكسيكي، لكني أعيش وأعمل في ألمانيا، كنت في رحلة عمل إلى أمستردام وأنا ذاهب إلى مصر الآن للسياحة و...

قال كلامًا كثيرًا بعد ذلك لم أفهم معظمه فهو يتكلم الإنجليزية بنسبة ٣٠% على أفضل تقدير وإنجليزيتي لا تزيد على ٥٠% وهذا معناه أننا نتواصل بحوالي ٨٠%، وإذا ما حذفنا ١٠% للهجته وسرعته تصبح المحصلة النهائية ٧٠%. قلت لنفسي لا بأس وخلاصة الكلام الكثير الذي فهمته هو أنه مكسيكي ألماني، لكني لم أفهم تمامًا حكاية أسرته المصرية والتي يرغب بزيارتها، لذلك سألته وأنا أواصل التهام مهلبيّة مصر للطيران المليئة بالنشا والسكر والشحيحة اللبن:

ـ أنا لم أفهم. يعني أهلك في مصر؟. جاءوا من المكسيك ليعيشوا في مصر؟!

ـ لا. هم مصريون يعيشون في مصر.

ـ إذن. أنت مصري!

ـ لا. أنا مكسيكي ولكن أهلي في مصر.

يـا إلــه الكون. ويا لسوء تعليم اللغات الأجنبية في مدارس مصر الحكومية. قلت لنفسي وتابعت له:

ـ كـيف تكون مكسيكيًا وأهلك في مصر؟ وكدت أضيف له: "فيما لا يزيد على جملتين وبلهجة واضحة مفهومة".

ـ ويل Well أريد أن أوضح لك، أن جد أمي مصري، وقد جـاء إلى المكسيك وأحبَّ جدتي، جاء وقت الحرب وأنا لا أعرف عنه شيئًا، وأريد أن أرى أسرة جدي وأعرفهم.

شـكل جـاري الطائر ينبئ بأن عمره لا يتجاوز نهاية العقد الرابع والحروب التي أعرفها هي حرب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ وقـبلها جميعًا حرب فلسطين ١٩٤٨ مع "إسرائيل"، فهل يمكن أن يكـون جده قد حارب في أي منها؟ مستحيل منطقيًا. غبية ـ قلت لنفسـي ـ ولكـن هـناك الحرب الكونية الأولى ١٩١٤، والثانية ١٩٣٩.. إذن سأسأل:

ـ لا. لا الحرب القديمة. ردّ على سؤالي.

ابتسـمت مـرة أخـرى في أعماقي وقلت لنفسي: فيلم هندي طويـل بلغـة إنجليزية ركيكة ويحتاج إلى ترجمة فورية، فأنا لا أعرف ماذا يقصد بالحرب القديمة: هل هي حرب البسوس؟ حرب داحـس والغـبراء؟! كدت أضحك فعلاً، فالأخ المكسيكي فهلوي ويـنوي بـيع المياه في حارة السقايين، إن وراء ما يقوله حكاية

أخرى، حكاية أكبر ربما تكشف عن تفاصيلها ساعات رحلتنا الهوائية التي مايزال أمامها ما يزيد على الثلاثة ساعات، ولكن فلنبدأ بالتعارف.

ــ رودلفو فرديناندو.

ــ خالدة مصطفى إسماعيل.

جاءت المضيفة مرة أخرى.. قصيرة، سمراء، متأففة لسبب غير مفهوم كأنها تؤدي عملها جبرًا واضطرارًا فطلبت قهوة وطلب رودلفو شايًا، وبدا الأمر لي وعلى رغم كل شيء طريفًا ومسليًا ومطيّرًا للنوم من عيني وهو يعرفني بنفسه، مهندس مكيانيكي يعمل في شركة «سايمنز الألمانية العملاقة، التحق لفترة بثورة الهنود في جنوب المكسيك، لكنه في النهاية جاء ليعيش في ألمانيا (طبعًا لم أسمع يومًا عن ثورة الهنود التي قال إنها قامت سنة ١٩٩٣ في جنوب شرق المكسيك، وهل نسمع أو نقرأ مثل هذه الأخبار في إعلامنا).

ثم إن رودلفو خرج ــ كما قال ــ بعدها من البلاد نهائيًا ويعيش في ألمانيا.

حكايته ملتبسة ومتشابكة، لكنها لم تمنعني من تقديم حكايتي البسيطة بدوري: محامية يتيمة الأبوين في أول حياتي العملية، وكنت في هولندا لزيارة أخي غير الشقيق وحضور مؤتمر عن حقوق الإنسان. (ابتسم رودلفو لسبب، دون أن يعلق، عندما ذكرت حقوق الإنسان). ثم إنه جرني إلى ثورة هنود المكسيك التي هددت الحكومة المركزية وقتها وشارك فيها هو ضمن عدد من المثقفين

الذيـن رفضـوا كـل الأشـكال السياسية الموجودة هناك: اليمين واليسار و...

قاطعته بدوري:

ـ ولكنك مكسيكي ولست هنديًا؟

ـ لا. أنـا هـندي مكسيكي. الهنود هم الأصل، جدتي كانت نصف هندية و...

نصف هندية؟. ساءلت نفسي وقلت:

ـ لكنك تقول إن جدك مصري؟

ـ آه. هي تزوجت بجدي المصري عندما جاء وقت الحرب القديمة.

لم أقاوم فقلت مازحة:

ـ نصف هندية. طيب والنصف الآخر، كوكتيل؟

ـ جدتي. أبوها نرويجي وأمها هندية.

ـ يعني حضرتك نرويجي. هندي. مصري.

ـ وألماني. أمي حملت بي من رجل ألماني.

ـ يعنـي حضـرتك أمم متحدة تسير على ساقين. (ثم إنني أرجأت الاستفسار عن "حملت بي من رجل ألماني" إلى حين.) لم يضحك لمزحتي كما توقعت، لكنه ردّ بجدية شديدة بعد صمت:

ـ تأملـي هذا وفكري في العالم الذي نعيشه وكم هو غريب، فجـدّي الكبـير نهّاب، جاء من النرويج للمشاركة في عملية نهب ثروات الهنود الحمر وإبادتهم في أمريكا اللاتينية، وجدتي لم تكن إلا عبدة لديه وأنجبت أمي منه ولم يتزوجها أو يمنح اسمه لأبنائها

جرياً على العادة العنصرية في ذلك الزمان الماضي، أما جدي المصري فقد جاء ليشارك في الحرب الأهلية عندما بلغت عمليات النهب والاقتسام الاستعماري ذروتها بين الدول الأوروبية المختلفة والمستوطنين الأمريكان الذين راحوا يقضمون قطعة تلو أخرى من أراضي الهنود الحمر الذين أبادوهم في أميركا الشمالية والوسطى، وها أنا الآن ـ وكما ترين ـ نتاج كل هذا.

نظرت إليه متعجبة وممنونة نوعًا لدرس التاريخ الذي تلقيته لتوي.. لم أعرف بماذا أجيب على ما قاله، فأنا في الحقيقة لا أعرف شيئًا عن وقائع التاريخ الذي سرده، وأعترف بأنني لم أتعلم شيئًا في المدرسة ولا في الجامعة يتعلق بتاريخ الهنود الحمر، وجل معلوماتي عن سكان أمريكا الأوائل مستقاة من أفلام الغرب الأمريكية المثيرة، وكل ما تبقى في مخيلتي من صور لهؤلاء الهنود، إنما هي لأناس ذوي بشرة نحاسية داكنة وشعور حريرية مسترسلة تغطيها تيجان من ريش ملون طويل لطيور لا أعرف أنواعها، شعرت بالحرج قليلاً، وبعجز مكثف عن المشاركة بالحوار في أمور لا أعرف عنها إلا لمامًا، لكن فضولي لمعرفة المزيد عن حكاية جده المصري دفعني لسؤاله مرة أخرى:

ـ ولكن الغريب أن جدك المصري ذهب ليحارب في المكسيك؟! ثم أردفت ضاحكة:

ـ مصر بعيدة جدًا عن المكسيك، ولا أعرف أنه كان بين الدولتين أي نوع من الصراع، مصر في أفريقيا والمكسيك في أمريكا الوسطى وبينهما بلاد كثيرة ومحيط واسع و...

قاطعتني مضيفة مصر للطيران، إذ جاءت لتأخذ ما تبقى من مائدتها الصغيرة غير العامرة، ولأعيد الطاولة/الرف إلى مكانها الأول، مثبتة إياها على ظهر مقعد الجالس أمامي، وبعد أن فعل رودلفو ذلك أيضاً قال:

ـ جدي كان من جنوب مصر، واسمه أوثمانو وهو بيشوب.

"أوثمانو وهو بيشوب". كررت في سرّي مرة أو اثنتين وأنا أفكر لبرهة، وبعدها رحت أقاوم ضحكة باتت على وشك الخروج مني بينما أقول لنفسي: الأسقف عثمان، هذا ما أسمعه لأول مرة في حياتي.

ـ تقصد الشيخ عثمان، في الإسلام لا يوجد بيشوب، أسقف يعني، ولا توجد رُتب دينية كما في الكنيسة المسيحية، هناك شيخ فقط.. الشيخ عثمان.

وكدت أقول له إن الإسلام لا يعرف الكهنوت وأن أي إنسان يستطيع أن يكون شيخاً لو قرأ القرآن الكريم وتفقه في الدين لكن رودلفو قاطعني وهو يردد:

ـ أوه.. شيخ.. شيخ.

قلت:

ـ شيخ.. شيخ. خ. Kh وشددت على حرف الخاء.

ـ شيخ. شيخ أوثمانو وهو جاء وقت الحرب ولكن بقى في فيراكروز بعد أن عرف جدتي وهي كانت جميلة وأحبته جدًا وأنا الآن أحاول العثور على عائلة أوثمانو وأعرفهم.. أليس هذا جميلاً؟!

نظـــرت إلـــيه متشككة قليلاً دون أن أرد على سؤاله، فأنا لا أعــرف أهــذا الــذي قاله جميل أم غير جميل، فعشرات الأسئلة والأفكـــار انفجـــرت برأســـي، فما يقوله هذا الجالس إلى جواري يـــتجاوز المـــنطق ويحتاج إلى كم من الإجابات على أسئلة رأسي لمنطقته ومواصلة الكلام، تساءلت بداخلي:

هل هذه بداية فيلم أمريكي مثير؟ بدا لي الأخ رودلفو الجالس إلـــى جـــواري غريب الأطوار قليلاً خصوصًا وأنني لاحظت أنه يضـــع بأصــــابعه ثلاثـــة خواتم من الفضة، واحد منها على هيئة خفاش عينيه من الزمرد الحقيقي.

قلت بعد تفكير:

ـ وكيف ستعثر عليهم.. هل معك ما يدل عليهم؟ هل تعرف كـــم عـــدد سكان مصر الآن؟، إنهم أكثر من سبعين مليون نسمة، وفـــي الحقيقة فإن الرقم الصحيح ربما يكون أكثر من هذا بكثير، لأن الـــناس لا تـــثق في الحكومة أبدًا، وتخشى أية عملية للتعداد السكاني تقوم بها الدولة، والفقراء يظنون أن الحكومة تعدهم لأنها ناويـــة لهـــم على الشر، أو لأنها تحسدهم على ما أعطاهم الله من عـــيال على أفضل تقدير، لذلك فهم يمدونها بأرقام خاطئة ومضللة وغير دقيقة، ومعنى ذلك يا رودلفو أنك تنوي البحث عن إبرة في كومـــة رمـــل؛ يعني مستحيل أن تجد عائلة عثمان جدك دون أن يكون لديك مستندات أو وثائق أو أي دليل يقودك إلى هذه العائلة.

ـ نعم. نعم. عندي أشياء.

قـــال وهو يهب واقفًا مما لفت نظر الطفل الجالس إلى جوار

أمـــه علـــى الكراســـي الموازية لمقاعدنا في الجانب الآخر الذي يفصـــله عنا ممر الطائرة، ويبدو أنه ظن أن رودلفو سيشرع في تقديم استعراض بهلواني سريع، لأنه راح يضحك ويصيح بكلمات غـــير مفهومـــة وهو يشير إلى رودلفو بإصبعه، بينما كان الأخير يفـــتح بـــاب رف الطائـــرة ويأتي من حقيبته الموضوعة بداخله، بمظروف ضخم، فتحه عندما جاء ليجلس إلى جواري مرة أخرى وقال:

ــ هـــذه هي أوراق جد أمي. كانت أكثر من هذا بكثير، لكن أمـــي التـــي احتفظت بها كواحدة من تذكارات جدتها قالت لي إن أمهـــا أحرقت العديد من هذه الأوراق في مناسبات مختلفة، فكلما كان يلمّ بها مرض، أو تحدث لهم أحداث غير سارّة، كانت تحرق بعضًـــا مـــنها ضمن ما تقوم به من طقوس هندية قديمة لاعتقادها بأنهـــا أوراق ســـحرية، لكـــن عندما ماتت جدة أمي، ظلت هذه الأوراق بمـــنزلها بفـــيراكروز، وقد احتفظت أمي بعد ذلك بهذه الأوراق التـــي أخذتها من أمها حتى بعد أن انتقلت للعيش مع أبي الألمانـــي الإســـباني، لأن أم أبـــي إسبانية الأصل، ثم انتقلت هذه الأوراق مـــع أمـــي إلـــى نيومكسيكو حيث ولدت وعشت معظم ســـنوات عمري الأولى، أظن أنها مكتوبة بلغة مصرية عربية أو فارسية.. لا أعرف.. ثم ابتسم وأردف:

ــ أو أنهـــا أوراق ســـحرية، كما كانت تظن جدة أمي.. من يدري ربما كانت كذلك!

لم أرد، وبدأت أفتح المظروف الذي ناولني إياه.. كانت هناك

رزمـــة من الأوراق الصفراء، وضعت بين دفتي جلدتين ذاتا لون أخضـــر داكـــن قديـــم وربطت جيدًا بشريط من المخمل الأحمر، وعـــندما بـــدأت أتلمس الصفحات المدونة بقلم كوبيا أزرق، والتي تلاعبت بملامح حروفها السنون الطويلة، فبهتتها وأوهنتها، خيل لي أن هناك رائحة غريبة تفوح منها.. رائحة تخالطت فيها روائح البحار، بملح دموع قديمة سقطت عليها هنا وهناك، وأوراق عشب غابـــات بعـــيدة جعلتني أسرح بفكري بعيدًا، مفكرة: ماذا يا ترى ســـيكون وراء هـــذه الأوراق.. هـــل يمكن أن يكون فيها ما يقود رودلفو إلى حقيقة وأصل جدّه المصري المزعوم؟، لا أعرف، ثم إنـــي أفقت من استغراقي في التفكير على صوت مضيفة الطائرة وهـــي تطلب من الركاب ربط الأحزمة وإعادة وضع المقاعد في وضعها الأصلي استعدادًا للهبوط في مطار القاهرة.

هبطت الطائرة في مطار القاهرة، فغادرتها وأنا أودّع رودلفو وأتمنى له إقامة طيبة، والتوفيق في العثور على ما تبقى من عائلة جده المصرية، وقبل أن أتركه زودته ببعض النصائح المتعلقة بالتعامل مع سائقي التاكسي، وكذلك بأفضل المطاعم التي يمكن أن يأكل بها أكلات مصرية تقليدية (اكتشفت فيما بعد أنه يحمل معه كتابًا مليئًا بكل التفاصيل عن المطاعم ومحلات الشراء التي لا أعرفها أنا وكذلك أسعار السلع التقليدية).

ثم إني أعطيته عنواني ورقم تليفوني للاتصال بي إذا ما احتاج إلى شيء ما، وذلك من باب الذوق والكياسة، وكنت بالطبع أنطلق من قاعدة مصرية قديمة ترى أن كل غريب قادم إلى البلد إنما هو غلبان ومسكين، وحالة تراجيدية تستحق الاهتمام والرعاية والعطف، قلت له مازحة:

ـ عمومًا، أنت مصري، تصرّف وكأنك في بلدك.

واقترحت عليه الاتصال بهيئة الاستعلامات في وسط البلد وبينت له مكانها، قائلة له إنه ربما يجد فيها من يساعده على الوصول إلى عائلة جده المصرية، وبصراحة كنت خلال ذلك أتشكك في جدية رودلفو حقًا فيما يتعلق بالوصول إلى جدّه، وإلا

لماذا انتظر كل هذه السنوات الطويلة حتى فكر في البحث عن أصوله المصرية، ولا أدري لماذا تذكرت وأنا أفكر بذلك في حكاية سيدة مصرية قريبة لنهال صديقتي، التقيت بها في إحدى المرات ببيت نهال، كان أبوها مصرياً وأمها صربية، وقالت لي أن هناك مجموعة من الغجر اليوغسلاف يطالبون بالحصول على الجنسية المصرية، وقد ذهبوا إلى السفارة المصرية ببلغراد وقدموا طلبًا بذلك، ولكن طلبهم قوبل بالرفض.. هل يمكن أن يكون رودلفو راغبًا في الحصول على الجنسية المصرية أيضًا من خلال إدعاء أصله المصري أيضًا؟ ربما.

ركبت تاكسيًا ودخلت قاهرتي المجنونة التي افترسها الزحام والضجيج والتراب والإهمال والقبح المعماري والفساد والفوضى، ناهيك عن تفاصيل الحياة اليومية الغبية المعقدة الملتهمة للعمر والوقت والجهد والأعصاب، كانت في حوالي الواحدة صباحًا ترقد هادئة مستكينة كطفل مشاغب شقي هدّه التعب بعد لعب كثير فنام، ورغم كل معاناتي منها مثل أية مواطنة أو مواطن ولد وعاش فيها وكابد متناقضات حياتها اليومية، إلا أنني شعرت وبمجرد أن خرجت من باب المطار، وكأن روحي الضائعة قد ردت إليّ مرة أخرى، وأن تنفسي بات طبيعيًا، وبكل ذلك الشمول النفسي من السكينة والاطمئنان، فأي إدمان أدمنه لسحرها الغامض وأمانها المستقر وحياتها الصاخبة الوادعة في آن معًا، وكل تلك العذوبة الفائضة من ناسها، رغم الفقر وقسوة الحياة والأيام التي تكرّ ولا تجود بما هو أفضل أبدًا.

على مدى ما يقارب الأسبوع بعد ذلك، كنت قد نسيت رودلفو وأوراقــه وحكاياته عن المكسيك وجدوده وثورة الهنود، وانشغلت بتفاهات عمتي اليومية ودوامات القضايا والمحاكم ومشاكل حقوق الإنســان التي تبدو لي دومًا وكأنها بلا أول ولا آخر، وتدور في حلقــات مفرغة، كانت عمتي لا تكف عن الثرثرة كلما التقيت بها فــي البيــت وتصر على ملء فراغات تظنها موجودة في حياتي، وخــرق الاتفاقات المعقودة بيننا، فقد أعلنت وبعد مرور يوم واحد فقــط من وصولي للبيت عن عرض مفاجأة متصورة أنه يتوجب علــيّ إثــر سماعه الشهيق انبهارًا، والسجود الفوري تحت قدميها امتــنانًا! ثلاثـــة عرسان دفعة واحدة، لابد أن أختار واحدًا منهم، وبســرعة.. الأول إبــن لسيدة التقت بها وتعرفت عليها في محل الكوافير أثناء تغيير لون شعرها من الأحمر النحاسي إلى الأصفر الكهرمانــي، والثانــي قريب لنا، سمعت عنه مرارًا ولم أره مرة واحــدة طيلة حياتي، لأنه هاجر إلى أستراليا منذ سنوات طويلة، لكــنه عاد مصرًا على الزواج من واحدة مصرية "تكون من ثوبه ويعرف أصلها وفصلها"، كما قالت وعلقت أنا: يا سلام!!. والثالث وكيل نيابة أخ لجارة لنا في العمارة "ويبقى زيتكم في دقيقكم وكله شغل نيابة ومحاكم".

إجابتــي الثلاثــية كانت قاطعة: لا. لا. لا. وبطّلي يا عمتي الكــلام الفــارغ ولو سمعت حكايات من هذا النوع يا عمتي مرة ثانية والله العظيم أسيب لك البيت وأمشي.

فــي نهايـــة الأسبوع، وبعد يوم شاق من العمل والجري في المحــاكم، عدت إلى البيت، كنت مرهقة جدًا بسبب الحر ورطوبة

الجو الفظيعة، وفي حالة من الغيظ الشديد لأن ماسورة الصرف الرئيسية في ميدان العباسية انفجرت فجأة وأغرقت الشوارع مما أدى إلى تعطل حركة المرور وانحباسي داخل الأتوبيس في شارع رمسيس ما يزيد على الساعة إلا ربعا، شرعت في خلع ملابسي تأهبًا لدخول الحمام وعمل دُش بارد، حتى أسترخي قليلاً وأتناول الغداء مع عمتي، وبينما كنت أشرع بفك أزرار بلوزتي الكتان البيضاء التي أحالها غبار يوم عمل واحد في المدينة إلى اللون الرمادي، رنّ جرس التليفون مرارًا، فزعقت عمتي بينما كانت تحمل بيديها طبقي كشك صعيدي بالتقلية وتسير من المطبخ باتجاه غرفة الطعام.

ـ الله! ردي من عندك يا خالدة، ارفعي السماعة جوّه. يعني التليفون نازل رن وأنتِ ولا كأنك هنا!؟

ـ طيب. طيب، زَعقَت لها بدوري من داخل الحمام وتوجهت إلى غرفتي لأرد بينما يجيئني الصوت:

ـ هل يمكن أن أكلم مس خالدة؟

ـ رودلفو.. أنا خالدة.

عرفت صوته للوهلة الأولى، بنبراته الخشنة القصيرة والسريعة.

ـ أوه.. كيف حالك، هل كل شيء جيد معك؟

ـ نعم. نعم.. كل شيء تمام.

صمت قليلاً بعد أن قلت، وقال:

ـ سأسافر اليوم بعد منتصف الليل، هل يمكن أن أراكِ قبل سفري في المساء لبعض الوقت.

ـ اليوم؟!

تساءلت وأنا أكاد أن أنفجر من الغيظ، فأنا قد وصلت البيت لتوي لألوذ به من العمل منذ الصباح في هذه المدينة المجنونة ومتعبة إلى درجة لا يمكن تصورها وأتوق لأكل لقمة وشرب كوب من الشاي واقتناص ساعة قيلولة، ثم هل يظن هذا الخواجة أنني واحدة صايعة، بدون شغلة أو مشغلة، أجلس إلي جانب التليفون انتظارًا لمكالمته؟ لماذا لم يكلمني بالأمس مثلاً لأرتب وقتي خصوصًا وأن الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر، ترددت قليلاً، فأنا أريد أن أرفض بأسلوب مهذب وأنهي المكالمة بسرعة.. بقيت صامتة قليلاً لا أقول شيئًا، فقال واستشعرت نبرات حرج وخجل بصوته:

ـ أنا آسف، كان يجب أن أحادثك قبل ذلك بوقت مناسب، لكنني لا أعرف كيف يمر الوقت بسرعة هكذا في القاهرة، ولم يكن من المناسب أن أكلمك بعد الساعة العاشرة مساء عند عودتي إلى الفندق، لكن أرجوك سيكون جميلاً أن تأتي، لن آخذ من وقتك الكثير.

كان ثمة فضول يعتريني يتعلق بهذه المقابلة، ورغبة خفية لمعرفة هذا الرجل، ربما كانت دوافعي إلى ذلك شخصية (قد أعثر فيه على ما لا أجده عند غيره. أبي وقد تجسد)، وربما كان خيالي الجانح هو الدافع لذلك الفضول وتلك الرغبة، وربما الحس البوليسي المكتسب من طبيعة عملي كمحامية، فربما أتوصل إلى قضية غير عادية تكون قصة رودلفو خيوطها الأولى. المشكلة

ليست في لقائه، ولكن الصعوبة تكمن في توقيت لقائه، لو كان قد تلفن لي بالأمس، لكنت تهيأت بما يكفي ورتبت أموري وبقيت بوسط البلد بدلاً من الرجوع إلى البيت والعودة إلى وسط البلد مرة أخرى والمرمطة في المواصلات، زفرت رغمًا عني وحسبت الوقت، ساعة غذاء، وساعة نوم، قلت:

ـ طيب.. أين ألتقي بك؟

ـ أنا في فندق فلامنكو بالزمالك، ما رأيك أن تأتي إليه ونقرر بعد ذلك إلى أين نذهب.

فكرت قليلاً: الذهاب إلى الفندق فكرة سخيفة، وللحظات اختفت من أرشيفي أسماء كل الأماكن العامة التي يمكن أن ألتقي به فيها، وكنت أفكر خلال ذلك في التقائه بوسط البلد، وكان هذا معناه أن ألخص وسط البلد في "جروبي".. قلت:

ـ لا. نلتقي في وسط البلد أفضل، هناك مقهى اسمه "جروبي" معروف جدًا، هو في ميدان طلعت حرب، كل سائقي التاكسي يعرفونه، ما رأيك أن تكون هناك في الخامسة والنصف.

ـ ممتاز. طالا هرب.

ـ طلعت حرب. ميدان طلعت حرب.

أكدت له مرة أخرى وأنهيت المكالمة بعد ذلك استجابة لضغوط عمتي "بقي لي ربع ساعة محضرة السفرة وقاعدة متصبرة وأنت نازلة دش في التليفون، خلصي وتعالي، وإلا نفسي تتسد من الزهق".

مكانـــان لهمـــا ذكريات خاصة بداخلي جروبي ميدان طلعت حـــرب، أو سليمان باشا كما كان يسميه أبي، ومعظم الناس حتى الآن، ومحـــل الشاي الهندي، وهو ما اختفى من خارطة المدينة، مـــثل عشرات الأماكن والأبنية والمحلات، التي ذهبت دون عودة مـــع الـــريح، ريـــح المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية العاصفة المجتاحة للبلد منذ عدة عقود وقلبته رأسًا على عقب.

جروبـــي سليمان صمد وظل في مكانه، وإن طاله بعض من القـــبح وكثير من أمراض الشيخوخة المهيمنة على ملامح ومعالم المدينة، لكن ذلك لم يحل دون أن أتذكره دومًا بالخير، ففيه طالما جلســـت مع أبي منذ أن وعيت بطفولتي الأولى، كان فخمًا وأنيقًا جـــدًا مـــثلما كـــان زبائنه في الماضي، أتذكر جرسوناته بتهذيبهم وملابســـهم بالغة الأناقة والنظافة، والكاستا اللذيذة وأنا أصر على طلـــبها كـــل مـــرة أذهب فيها إليه، وأبي يحاول إقناعي بتغييرها "طيـــب اطلبـــي حاجة تانية، جربي الترايفل أو سلطة الفواكة أو الكـــريم كراميل"، لكن كانت محاولاته تذهب سُدى، فكنت مخلصة دومًـــا للكاســـتا بالمارون جلاسيه، أما الشاي الهندى فهو مرتبط عندي بذكرى لا أنساها حيث شعرت ولأول مرة في حياتي بأنني

أغار من امرأة أخرى. كنت في حوالي التاسعة أو العاشرة وذهبت إلـى ذلك المحل مع أبي، وبصحبته سيدة كانت جميلة وأنيقة جدًا علـى ما أذكر، كانت ترتدي فستانًا أسود من الحرير يكشف عن ذراعيها وجيدها وتضع في شعرها المعقوص أمشاطًا عاجية مطعمة بفصوص براقة. بدت لي فاتنة جدًا برقبتها الطويلة المحاطة بعقد دورين من اللؤلؤ ــ هكذا أتذكر ــ وتطلي شفتيها بأحمر شفاه فاقع اللون، فجأة انتبهت بينما كنت أمازح قطة جاءت تحت مقعدي لتتسول طعامًا وحنانًا، فوجدت أبي يتمعن بوجهها طويلاً ثم ينحني ليلثم يدها بشفتيه، عندئذ قمت من مطرحي ورحت أطوق عنقه بيدي وأقبله على نحو مبالغ فيه جعله يضحك، لكنـي كنت غاضبة وحانقة عليه، وعلى تلك المرأة التي لم أنسها أبدًا، وقد داخلني شعور عاصف بأنه خدعني، فأنا لست محبوبته الوحيدة الأثيرة التي يغمض عينيه كل مساء على صورتها وينام، كما كان يقول لي دومًا.

رحت أتذكر وأفكر بينما كنت جالسة أراقب عشاق اليوم من الشباب، شبان بعضهم بذقون واضحة مغطاة بالشعر وشابات محجبات على الأغلب.. تساءلت: ترى ماذا كان أبي سيقول عن رودلفو لو ظل عائشًا حتى الآن ولم يمت؟، وكيف سيكون رأيه في قصته الغريبة التي لا أعرف هل أصدقها أم أكذبها؟. ابتسمت وأنا أتخيل تارة أنه سيتهكم ويضحك وهو يقول: ولماذا لا تعرفينه على المخرج السينمائي حسن الإمام؟. إن قصته ملائمة جدًا لنوع الأفلام التي يخرجها عادة، وربما لو رآه شخصيًا، لفكر في إسناد

البطولة المطلقة له، كان أبي سيسخر من حكاية رودلفو وسيجعلها موضوعًا للتندر بينه وبين عمتي بلا شك، مما يدفعني للغيظ والغضب خصوصًا إذا ما انتهزت عمتي الفرصة وراحت تناقش موضوع ضرورة زواجي بأسرع ما يكون. كدت أغتاظ وأنا جالسة فعلاً، وكنت خائفة وحائرة، فأنا لا أعرف على وجه التحديد، هل أصدق قصة رودلفو هذه أم أكذبها؟، فالقصة بدت لي ذات بعد أسطوري لا يصدق، شاب مكسيكي يعيش في ألمانيا جاء إلى مصر بحثًا عن أصول جده المفقودة منذ عشرات السنين، وكل ما لديه من الأوراق الصفراء القديمة، لا.. يجب أن أتحفظ عند اتخاذ أي قرار مع الأخ رودلفو يتعلق بهذه القصة، قلت لنفسي وأردفت ـ كما يجب أن أتوقف وأفهم منه بعض تفاصيلها مثلما أفعل عادة عندما أفحص ما أشتغل عليه من قضايا. بدأت أشحذ أسلحتي الدفاعية وأنا أفكر، لكن رودلفو قطع تساؤلاتي الحائرة وأوقف توجساتي المتنامية لّما رأيته يتقدم من باب المحل إلى الداخل بخطوات متلكئة وهو يدور بنظراته في المحل باحثًا عن مكاني، بدا وجهه لي خلال ذلك وكأنه من الوجوه التي يصعب تصنيفها جغرافيًا، فالقارات الأرضية الست تشاركت جميعها في رسم خريطة ملامحه، شعر هندي متدفق النعومة، وعينان يمكن أن تطلا عليك من أية مدينة رابضة عند مياه المتوسط، ثم تلك الوجنة المنبسطة العريضة لسكان أستراليا الأصليين، وفوق ذلك كله، فالأخ رودلفو من الممكن أن يكون "شلبي" بواب عمارتنا القادم من صعيد مصر الجواني أو أي شاب شبرجي يمكن

مصادفته في واحدة من محطات مترو الأنفاق من أول المرج وحتى حلوان، فالأداء العام لملامحه وحركاته التلقائية تمنحه حق المواطنة المصرية بامتياز، عمومًا، أشرت له من مكاني فجأة وجلس بعد أن حياني ودعوته إلى شرب ليمون مثلج كالذي أشربه وكنت قد طلبته بمجرد وصولي، ورحت أشرح له بطريقة دعائية سياحية مزايا الليمون البنزهير المصري الممتاز، والمتميز بصغر حجمه وكثرة عصيره ولذة طعمه خصوصًا لو أضفت إليه في الخلاط ملعقة لبن وقليلاً من الفانيليا والنعناع الناشف المطحون، "وأحلى ليمونادة تشربها في الدنيا من الليمون البنزهير وأرق كولونيا في العالم تصنع من زهوره، وتقدر تشتري وأنت مسافر بخمسة جنيهات ليمونا تحطه في الثلاجة داخل كيس نايلون وتعصر منه وتشربه، أو تحطه على الشوربة.

راح رودلفو يمتص مصّات متتابعة طويلة من كأسه التي أتى بها النادل وقد تندى سطحها الخارجي بضباب ثلجي خفيف، وذلك بالمصاصة البلاستيكية ذات الطرف المعقوف، ثم قال ــ وربما كنتيجة للدعاية الهائلة التي قمت بها لليمون البنزهير:

ــ لذيذ فعلاً.. ممكن آخذ واحدة ثانية؟

ناديت على الجرسون، وطلبت له كأسًا ثانية، كما طلبت منه أن يأتي بليمونة ليراها رودلفو، فلما عاد بها، تشممها رودلفو ودعكها بيده ثم قال:

ــ آه. أظن أن عندنا مثله.

ــ فعلاً؟! تساءلت بدهشة وأضفت:

ـ ربما كان هندي الأصل.

ابتسم وأضاف:

ـ آه. ربما أحضرها جدي من مصر إلى فيراكروز ذات يوم!

ابتسمت بدوري، وإن كانت قد تأكدت لديّ درجة من الهوس في كلامه عن جده وأصله المصري، وهو ما استشعرته خلال لقائي به في الطائرة، لكنه لم يتركني طويلاً لانطباعاتي الداخلية، إذ واصل كلامه:

ـ ذهبت إلى الهرم بالأمس وهو خطير، جدًا وكذلك رحت الاستعلامات وقابلت بعض الناس فيها وقالوا لي إنه من الصعب جدًا أن أجد عائلة جدي، لأنه لا توجد معي مستندات واضحة ومفيدة تدل على اسمه الكامل أو اسم عائلته، وواحد منهم قال لي إن المسألة تحتاج أن أظل في مصر عدة شهور وربما أكثر إذا كنت أريد الخروج بنتيجة فعلاً، وأنا قلت لهم إن هذا مستحيل لأن لديّ عملاً في ألمانيا، وفي النهاية اقترحوا أن أترك الأوراق التي معي كلها ليفحصوها ويدرسوها، ثم يأتيني الرد منهم بالبريد بعد أن أسافر، والحقيقة أنني رفضت وقلت إن هذا مستحيل، فأنا أخشى على هذه الأوراق جدًا، وقد سألوني أسئلة كثيرة عن سبب زيارتي لمصر، وهل أنوي الإقامة فيها طويلاً، وكذلك سألوني عن عملي في ألمانيا ولماذا أعيش فيها، وأنا تعجبت لكل هذه الأسئلة، وقلت لهم إنني مهندس، وتعجبت كذلك لأنهم سألوني عن الناس الذين أعرفهم في مصر، فضحكت وقلت لهم أنتم وحسين

بارمان الفندق لأنه شخص لطيف جدًا وأتداول معه الكلام كلما رحت لأشرب البيرة في البار وهو نصحني نصائح مفيدة ودلني على محل أشتري منه ملابس من القطن المصري وكان ممتازًا جدًا، ثم قلت لهم عنك أيضًا، وأخبرتهم أنني جئت للسياحة وللبحث عن عائلة جدي.

سألته: ـ لكنك لا تعرف شيئًا عني، ماذا قلت لهم؟!

سكت قليلاً وهو ينظر إليّ طويلاً، ثم أبدى إعجابه بعقد الكهرمان في رقبتي قبل أن يضيف:

ـ بصراحة، كدت أن أعطيهم المظروف، لكني فجأة، خفت على ما بداخله من أوراق، لا أعرف في الحقيقة لماذا آثرت ألا أعطيهم الأوراق في النهاية، وبعد أن خرجت من الاستعلامات خطر ببالي أن أترك الأوراق معك لتقرئيها، فربما تجدين فيها شيئًا يدلني على عائلة جدي، وفي جميع الأحوال، أستطيع أن أستردها منك فيما بعد، فأنا أشعر أنك إنسانة جيدة وصادقة ويمكن أن تكوني صديقة لي.

دهشت وشعرت وكأنني عسكري مرور في ميدان قاهري ساعة ذروة الظهيرة، مسحت جبيني بيدي، وكأن حبيبات عرق تجمعت عليه، ففكرة إعطائي الأوراق أربكتني ناهيك عن "ويمكن أن تكوني صديقة لي" وسرعان ما تدفقت في رأسي عشرات الأسئلة من سرداب المخاوف المعتم بداخلي، أسئلة روايات بوليسية قديمة وقد تداخلت مع مشاهد أفلام مصرية أبيض وأسود،

ثم هناك أسئلة النصب والاحتيال وصفحات الحوادث بالصحف القومية وغير القومية.

هممت أن أنطق رافضة هذا الشرف، وتلك الثقة اللذين لم أتوقعهما وأنا أتذكر بعضًا من تراثنا "ابعد عن الشر وغني له"، لكن الحقيقة أن فضولاً عارمًا ومثيرًا، وأمرًا غامضًا، كانا يعتملان بداخلي، ويدفعاني لاستشعار أنفاسي بينما أقول:

ـ طيّب. لماذا لا تصورها فوتوكوبي وتترك معي صورة منها.

ـ لا. حاولت تصويرها، لكن التصوير فشل، قالوا إنها قديمة جدًا لا تصلح للتصوير.

ثم ابتسم وأضاف:

ـ يبدو أنها ستظل أصلاً دائمًا، أصلاً حقيقيًا لا يمكن أن يكون له صورة.

اقترحت عليه أن أصحبه في جولة سريعة لبعض الأماكن التي أعرفها بالقاهرة إذ كانت أمامه عدة ساعات قبل أن يذهب إلى المطار لتعود الطائرة به إلى ألمانيا، وأثناء خروجنا إلى الشارع بدا لي لطيفًا وأحسست أن ثمة شعورًا إنسانيًا غامضاً يقرّبني منه، ذهبنا إلى جامع أحمد بن طولون ودلفنا معًا إلى صحنه العتيق وحكيت له أنه من أقدم جوامع مصر وأن الصلاة لم تقم فيه منذ قرون طويلة ويقال إن الله انتقم من ابن طولون بذلك، لأنه عاقب المهندس القبطي الذي بناه فسجنه، فلعنه الأخير ودعا عليه ـ هكذا تقول الأسطورة.

قال رودلفو إنه خلال الأيام القليلة التي أمضاها بمصر، شعر وكأنــه ولد هنا وعاش عمره كله في هذا المكان، وحكى لي أيضًا أنــه حلم منذ يومين وهو في فندقه بالزمالك بأنه قابل جدّه عثمان، وأن الأخــير ظل يحتضنه ويقول له: ها أنت عدت أخيرًا ثم إنه رأى أبــو الهول يفتح فمه ويصلي بصوت عالٍ جميل تلك الصلاة التي سمعها قرب الفجر وهو غافٍ في فندقه بالزمالك.

حاولــت أن أوضـــح وأقول له، إن الأذان غير الصلاة، لكن إنجليزيتــي لم تسعفني بكلمة واحدة تفيد المعنى، غير أني شرحت لـــه أن الأذان دعوة للصلاة وليست الصلاة ذاتها، لأن في الزمن القديــم، لم تكن هناك كهرباء ولا ميكروفونات ولا ساعات يد أو حـــائط، فابتدعت المآذن واختيرت أجمل الأصوات وأرقها لدعوة الـــناس للصـــلاة، وتمنيــت بداخلي بينما كنت أقول ذلك ألا يكون المـــؤذن الـــذي ســـمعه رودلفو واحدًا من بوابي العمارات ذوي الأصوات البشعة التي تقتحم الآذان طوال الوقت، بعد أن احترفوا الأذان في جوامع صغيرة ضيقة، أسفل البنايات والعمارات.

يبدو أن رودلفو أعجبته هذه الأفكار التاريخية الخاصة بالأذان إذ قال فجأة:

ـــ أبو الهول كان جميلاً جدًا وهو يقول الله أكبر. الله أكبر.

ـــ وأشهد أن لا إله إلا الله. قل يا رودلفو.

ـــ ماذا؟

ـــ أشهد. أن، لا، إله، إلا، الله.

رددت الكلمات ببطء فكرر ما قلت بحروف عربية ركيكة مما دفعني للابتسام وأنا أقول له:

ــ إذن.. أنت مسلم الآن.. مسلم كجدك الشيخ عثمانو فالشهادة هي أولى خطوات الإيمان.

رد بحماس:

ــ أنا مسلم طبعًا. أقصد أنا لست ضد الإسلام ولست ضد أي دين، وفي بيتنا أمي كانت مسيحية كاثوليكية، لكن كانت لديها معتقدات هندية أيضًا وربما معتقدات إسلامية أيضًا ــ ودون أن تدري ــ أولم يعش المسلمون في الأندلس قرونًا طويلة؟، أولم يستعمرنا الأسبان المتأثرون بالعرب بعد ذلك؟. الحروب بشعة وأبشعها حروب الاستعمار، لكن يبدو أن الفائدة الوحيدة للاستعمار هذا هو أنه ودون أن يقصد نَقَلَ ثقافات وسَاعَدَ على امتزاج أجناس مختلفة، وأنا شخصيًا أكبر دليل على هذا.

أخذت أفكر في كل ما قاله، وأذان أبو الهول كما سماه، لكني سرعان ما عدت من أفكاري على رنين التليفون المحمول، فمددت يدي إلى حقيبتي المعلقة على كتفي لأخرجه وكانت عمتي:

ــ اسمعي يا خالدة أنا عند طنطك سميحة فوزي جارتنا في الدور الخامس، أصل أختها عندها مشكلة وقاصدة إنك تحليها لها، لأن عندها سوّاق سوداني عنده مشكلة وربنا يقدرك وتخلصيه منها، أنت راجعة البيت بسرعة، اطلعي اشربي قهوة عند طنط سميحة، أنا فوق.

كدت أشد شعري من الغيظ فعلاً، فعمتي لا تكف عن اقتحامي عبر المحمول في أي وقت تشاء، وهي تواصل إفساد لحظاتي وتدخلها في شؤوني من خلاله، وقصة السواق السوداني ربما تكون واحدة من قصصها المؤلفة المختلقة، أو ربما كانت واحدًا من كمائنها المعهودة لتقديم عريس من العرسان المختبئين في جرابها دومًا لي.. قلت بنبرات تكاد تنفجر على شفتي:

ــ عمتي، أنا في الشارع مع ناس ولما أرجع نتكلم في الموضوع.. سلام.

اشترى رودلفو بعض الهدايا من محل عاديات مصرية، تملكه سيدة فرنسية ويقع أمام جامع طولون، ثم توجهنا بعد ذلك إلى جامع السلطان حسن والرفاعي وبدا مبهورًا بعمارة الجامعين وضخامة بنائهما، وعندما خرجنا طلب رودلفو من بعض المارة التقاط صورة مشتركة له ولي أمام باب الجامع الضخم، وبينما كنا نسير بعد ذلك، علّق بإعجاب على الطلاب الذين كانوا يجلسون بصحن الجامع لاستذكار دروسهم، ثم إننا جلسنا بعد ذلك بواحدة من المقاهي الشعبية المنتشرة بالمنطقة لنشرب الشاي، وطلب هو نرجيلة أيضًا، وبينما رحنا نحتسي الشاي ونتابع بأعيننا تدفق الرائحين والغادين في الطريق دونما انقطاع قال:

ــ لم أكن أتخيل أبدًا، أنني سأجلس ذات مرة لأحتسي الشاي في المكان الذي عاش فيه جدي يومًا، لو عشت يومًا من ذات الأيام في مصر، سوف آتي لأسكن هذا المكان الفريد الخاص.

صــمت، ثــم أضاف بصوت استشعرت منه وكأن عصافير كثيرة حطت مرة واحدة على حباله الصوتية.

ـ أظن أنني لابد وأن أعود مرة أخرى إلى هذا المكان، فثمة شــيء غامض يشدني إليه، شيء يجعلني أشعر وكأنني عشت هنا ذات مرة من قبل.

ثم:

ـ هل ستقرئين هذه الأوراق من أجلي؟

أومــأت برأســي وأنا أتطلع ببصري إلى البعيد، مفكرة فيما قاله للتو وكانت القلعة أمامنا، شاهقة شامخة تطل علينا من عليائها في صمت وبدت لي وكأني أراها لأول مرة الآن...

ما إن دخلت من باب البيت حتى وجدت عمتي جالسة في الأنتريه وأمامها طبق ترمس والراديو على آخره يصدح بصوت شادية "آه يا لموني يا لموني" هتفت بغيظ:

ـ عاملة فرح يا عمتي؟ صوت الراديو عال جدًا، الساعة دخلت على العاشرة والربع.

كنت أعرف أن سمعها ضعيف في الفترة الأخيرة وهي تظن أن صوت الراديو أو التليفزيون خفيض، سارعت بخفض صوت الراديو القديم الموضوع على المنضدة الأسيوطي في الركن بينما قالت هي:

ـ شادية، كان صوتها كأنه ندى، كلّه طيبة وحب وحنان. الله الله يمسيها بالخير.

ـ طيب يا عمتي، لكن أنا طلبت منك ألف مرة أن تبطّلي تطلبيني على المحمول إلا لو كان فيه موضوع مهم وعاجل، يعني موضوع سميحة فوزي كان لازم الكلام فيه على وجه السرعة.. خلاص يعني؟!

ردت بجد:

ـ والله العظـيم الولية في غاية النكد، لأن السوّاق السوداني الشـغال مـع أختها هويدا من ساعة ما ماتْ رجلها، وهي مشكلة فعلاً وأنا طلبتك من عندها لأنها قالت لي عليه وأنا نسيت أقول لك وهي ظانة أنني أهملته.

ـ طيب،. قولي لي الموضوع.

ـ والنبـي أنـا ما فاهمة، أصل السواق سوداني والحكومة عاوزة تطرده من مصر ويروح أمريكا.

ـ يا سلام!؟ قلت.

ـ آه.. وهو مسكين ومتحيرّ وعاوز يفضل في مصر.

ـ طيـب والحكومـة تطرده بدون سبب، كل السودانيين في مصـر مـن زمان وعددهم كبير ومشاكلهم في مصر مختلفة لأن معاملتهم في الإقامة كمعاملة المصريين و..

قاطعتني بضيق:

ـ طيب، كلّمي سميحة فوزي وافهمي منها الموضوع.

مـر أسبوع دون أن أتمكن من الاطلاع على أوراق رودلفو، وقـد ظلت داخل مظروفها لم تنفض عنها غموضها وإثارتها بعد، كنت أجري طيلة الوقت هنا وهناك بين أروقة المحاكم المزعجة، وأقسام البوليس القذرة، بحثًا عن حقوق مهضومة للبعض أو فضًا لمـنازعات ما كان يجب أن تحدث بالأصل لفرط سخافتها، لأعود في آخر اليوم منهكة، أتمدد دون راحة داخل عالم عمتي المنسوج مـن تفاصـيل الملل والضياع واللاجدوى، ومسلسلات التليفزيون الـبلهاء، وأدوات التجمـيل، والنمـيمة، والسعي وراء الحظ بفتح أوراق الكوتشـينة من حين لآخر، لكن على رغم كل ذلك، وعلى رغم أنها تراني معقدة وفاقدة للأنوثة مع سبق الإصرار والترصد، وأنني لا أقـدّر ما حباني الله به من مواهب جسدية وخلقية حق تقديـره، ورغـم خناقاتنا المزمنة، إلا أنني كنت أوقن أنها الكائن الوحـيد الحمـيم والقريـب مني في هذا العالم، فهي أثمن ما في الـتركة البائسـة التي تركها أبي لي، وفي الحقيقة كنت لا أطيق ابـتعادها عن البيت أو مبيتها خارجه عندما كانت تفعل ذلك أحيانًا فتذهب مع بعض صديقاتها إلى الإسكندرية أو مكان آخر.

والحقيقة أن الجانب الانتفاعي لم يكن غائبًا عن علاقتي بها، فمنذ أن جاءت لتقيم معي وهي تتكفل بكل تفاصيل حياتي اليومية التي كان أبي في السابق يقوم بها، فلقد باتت المسؤولة عن الطبخ وعن إعداد الطعام وعن كل شؤون البيت التي أكرهها كراهية التحريم، ورغم أنها كانت تستغل نقطة ضعفي هذه وتستخدمها ورقة ضاغطة بين الحين والحين عندما تعلن:

"لولا أنك صعبانة عليّ، كنت زماني في حضن رجل بالحلال وعلى سنة الله ورسوله. اللواء سعيد متولي مستعد يحارب عياله بعد موت أمهم ويبوس التراب تحت رجلي. لو شاورت له وقلت آه. صحيح إنه على المعاش، لكنه محترم وطلعته ترد الروح وتصبي العجوز لكن أنتِ كأنك معمول لك عمل، أو مسحور لك سحر، لا عاوزة ترتبطي بواحد وتحلي عني، ولا أنا قادرة أن أتركك لوحدك. يعني لا أنتِ راحمة ولا تاركة رحمة ربنا تنزل".

وفي الحقيقة، كنت أعرف تمامًا أن مشاريع زواج عمتي صارت مع مرور الوقت مشاريع وهمية، وأن حكاياتها عن الزواج باتت من نوع أحلام اليقظة، وقد كنت أتماهى مع تلك الحكايات وأعلن أسفي لها وأعدها بأنني سوف أحل مشكلتها في أقرب فرصة وأتزوج، مضيئة لها الضوء الأخضر فتنفضل وتتزوج بمن تشاء.

يوم الخميس الماضي، حلّت الذكرى السنوية الخامسة لوفاة أبي، فذهبنا إلى القرافة أنا وعمتي، أخذنا معنا وردًا وخوصًا وفطيرًا وبرتقالاً وموزًا وفلوسًا فكة ودموعًا كثيرة اختلطت مع

ذكريات جميلة، وجاء المقرئون فقرأوا القرآن، وبعدهم جاء عيال ونسـاء ورجال غاية في القذارة والبؤس والفقر، فوزّعنا عليهم ما حملناه ثـم خرجنا ودعوت عمتي لتناول الغداء في مطعم فلفلة؛ طلبنا موزة لحمٍ بالفتة ورحنا نتذكر أبي ونحن نأكل وتدمع أعيننا حينًا ونضحك حينًا آخر وفي أثناء ذلك كان يداخلني شعور عميق بالضياع والحزن، وبأنني وحيدة تمامًا في هذا العالم وقلت لنفسي بينما أنا أراقب عمتي وهي تأكل وتدخن وتسعل وتضحك: قريبًا ستتحول هذه اللحظات إلى ماضٍ وإلى تاريخ، فكم تبقّى لعمتي من سنين في هذا العالم، وكم ستبقى من الوقت في هذه الدنيا، وكم مرة أخرى سوف أكرر معها تلك اللحظات الخاصة جدًا.. تنهدت ولا أدري لماذا تذكرت رودلفو، وشعرت بحاجتي للحديث معه، قلت لعمتي فجأة:

ــ والنبي يا عمتي لما نرجع البيت، فكريني بمظروف قديم محطوط على الشوفنيرة عندي، عاوزة أبصّ فيه.

ــ قضية مهمة جديدة؟! ردّت:

ــ آه. قضية مهمة جديدة.

كررت وراءها دون أن أقول المزيد، حتى أوصد الباب أمام تيار فضولها الكاسح، ورحت أواصل مضغ الطعام.

بــدت الأوراق لي عند بداية مطالعتها، كصفصافة عجوز في آخر الخريف، صفراء، هشة جافة، وقابلة للتهشم مع أية حركة أو أقل إهمال في تقليبها.

كانـــت مـــن النوع الحكوميَ الأصفر القديم، الشبيه بكراسات المـــدارس الحكومـــية التي كانوا يسلمونها للتلاميذ في أول العام الدراســـي، غـــير أنهـــا ولمرور سنوات طويلة عليها كانت باهتة بســـطور زرقـــاء خفيفة ومتخشنة ومتخشبة عند الحواف وكأنها مومياء قديمة عولجت منذ زمن بالأعشاب حفاظًا عليها، ورغم أن من كتب هذه الأوراق استخدم قلم الكوبيا الأزرق وقد خبا لمعانه، إلا أن الكلمـــات فـــيها كانت مكتوبة بخط نسخ جميل وواضح لم يهضم الزمن حروفها بعد، وكان أجمل ما في الأمر هو أن كاتبها حـــرص علـــى ضـــبط الكلمـــات بالفتحات والكسرات والشدات والسكونات، لتبدو الصفحات في النهاية وكأنها مخطوط قديم جدًا، جديـــر بالعـــرض فيَ متحف من المتاحف خلف واجهة زجاجية، ليتباهى به مديره أمام مجموعة من تلاميذ المدارس البائسين.

رحـــت أقلب في الأوراق بمنتهى الرهافة والحرص، إذ كنت أخشـــى أن يتكسّر بعضها، ولاحظت أنها غير مرتبة وفقًا للترتيب

الرقمـــي التصـــاعدي، وكانت الصفحة٢٩ هي أول ما صادفني، ولكـــن ولحســـن الحظ وجدت الصفحة رقم ٧ ثم رقم ٩، ثم ١١. كانـــت صـــفحات كثـــيرة ضائعة ومفقودة ويبدو أن جدة رودلفو الهـندية كانت تنتقي ضحاياها من الأوراق بشكل عشوائي ودون أدنى تمييز لأعمارها، لتقدمها كقرابين لآلهة السحر الهندية، حتى يدفعوا عنها وعن أبنائها الشرور.. شعرت بالغيظ من تلك الهندية التي لا أعرفها وما فكرت يومًا أنني سأفكر فيها والتي تباعد بيني وبينها عقود طويلة من السنين والمسافات، وتصورتها وهي جالسة تـــتربع علـــى الأرض تشعل النار وتقرأ تعاويذها الغامضة وتتكل دونمـــا رحمـــة أو شفقة بتعويذة رودلفو المفترضة للوصول إلى حقيقة جده الضائعة.

داخلني أسى وحسرة حقيقيان على ما ضاع من الأوراق، وإن كنـــت قد بدأت أستشعر نوعًا من الضيق والملل أيضًا، فقراءة هذه الأوراق ســـوف تكون مهمة ثقيلة وصعبة بالنسبة لي في النهاية، أولاً يكفـــي مـــا أقـــرأه مـــن أوراق القضايا ومحاضر التحقيق وقـــرارات الاتهـــام كـــل يـــوم؟، إضـــافة إلى أن قراءة الكلمات المضـــبوطة والمُشـــكلة رغـــم إعجابـــي شكليًا بها، مسألة غير مستســـاغة أو مقبولة على الإطلاق، فأنا وربما جيلي كله لم يتعود علـــى ذلك أثناء تعلمه العربية بالمدارس، فجيلي هو جيل "شرشر نـــط عند البط.فلفل شاف"، وليس جيل أ بَ تَ ثَ جحن أكل رُزً، والتشـــكيل عنده لا وجود له منذ بدايات تعلمه العربية بالمدارس، قلـــت لنفســـي، لا بأس، سأقلّب بسرعة في الصفحات ولو وجدت

اسمًا أو عنوانًا يدلني أو يقودني إلى عائلة رودلفو، سأكون سعيدة الحظ ولسوف أبذل جهدًا لاقتفاء أثره ولابد أن أنجح إن شاء الله، فعثمان أو الشيخ أوثمانو لن يكون مقطوعًا من شجرة بأية حال من الأحوال، ولابد وأن يكون له أبناء أو أقرباء أو أحفاد موجودون حتى الآن وعلى قيد الحياة، بمكان ما في مصر وحتى يومنا هذا.

لكني وبعد قليل من التفكير، رحت أتساءل أيضًا: ماذا سيكون الأمر عليه لو لم أجد في هذه الأوراق ما يدلني على عائلة رودلفو أيضًا؟ ماذا سأفعل وكيف أتصرف؟

قررت في النهاية ألا أكون متشائمة وألا أستبق الأحداث، وشرعت في قراءة الأوراق بعد أن توكلت على الله وطلبت من عمتي أن تعزمني على شاي بنعناع وسكر خفيف تعمله بيديها الحلوتين.

رحت أرتب الأوراق بحرص وحنو وتعاطف، وكأنها مجموعة أطفال نجت من مذبحة حقيقية وليست أوراقًا تبقّت من حرائق جدة رودلفو السحرية، لكني وبينما كنت أفعل ذلك لم أكن أظن أو أدري أنني سوف أقع أسيرة سحر من نوع آخر، سحر غامض غريب، يوقظ ولا يخدر، ينبّه ولا يغيّب، وكنت لا أعرف على وجه التحديد، هل كانت جدة رودلفو تقف وراء كل هذا أم ماذا!

أوراق عثمان حفني

الصفحة ــ ٧ ــ

ثـــم إنني رتبت أموري والضيق واليأس يأخذان مني مآخذاً، وقلـــت لروحـــي: حسبي الله ونعم الوكيل منكم يا ظلمة يا كفرة، وكنت أقصد جكومة الخديوي وعسكره، والتي ما بات خافيًا على أحـــد الآن ظلمهـــا وافـــتراؤها فمالي أنا والابتعاد عن الأوطان، فالغـــربة ليست لأمثالي، وليتني كنت ذاهبًا إلى مكة أو ذاهبًا إلى القدس،بـــل أنا ذاهب إلى بلاد بعيدة، غريبة لا يعلم ما بها إلا الله، وكـــان ما يؤرقني هو أنني لم أكن موقنا من زمن بعينه أعود فيه إلى دياري، ولا زمان أعقد فيه عقد لقاء مع أحبتي وأترابي، ولولا ما يمكن أن يقال عني، لكنت بكيت كما تبكي النساء، لكني تجلدت وتماسكت وأنا أتذكر قول الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني

ولا جازع من صرفه المتقلـــب

ولا أتمنى الشرّ والشرّ تاركي

ولكن متى أُحمل على الشرّ أركب

ويـــوم الرحـــيل، كـــان يومًـــا مهولاً مشهودًا في "حُفْن" وما جاورَهـــا مـــن بلـــدات، ففـــيه بكـــى بعضٌ من رحمي من ذوي

الشـــوارب، قـــبل العيال والنسوان، وخرجت البلد كلها بصغيرها وكبيرها لتوديعي، وألقى الشيخ عبد المتعال مسعود حبيبي ونديمي شعرًا كثيرًا من عنده ومن أوابد الكلمات وكذا قصيدة "ودّع هريرة إن الركـــب مـــرتحل"، وكان البكاء والولولة يسمع من بعد، وبدا الأمـــر وكأني ميت ولست مسافرًا في دهمة فرضت عليّ فرضًا، وقـــد حاولـــت تهدئة الجميع قائلاً: ما كتب على الجبين لابد وأن تشـــوفه العين، وإن الله قدر وشاء وإنني سأعود إليهم سالمًا بإذنه في القريب، وكلاماً كثيراً من هذا النوع مستهدفًا تهدئة الخواطر، وتسكين النفوس، وظللت أعيد وأزيد في الكلام حتى يهدأ الجميع، والحقـــيقة أنـــه كان يكمن في داخلي على رغم كل شيء، مؤمن يُدرك أن الموت إنما هو الموت وإن تعددت الأسباب سواء هنا أو هناك وأن كل من عليها فان ولن يبقى غير وجه ربي ذي الجلال والإكرام، ثم إنني قلت للجميع أن الحرب ليست كاري وهي ليست لأمثالـــي، وإنمـــا أنا شيخ ذاهب مع الأورطة لتأدية واجبات الدين وفـــروض الشـــريعة ووجـــودي إنما هو ضرورة سوف تفرضها ظـــروف ما سيكون من استشهاد وموت، ولكني كنت أقول متأسيًا مواسيًا لروحي أيضًا وقد تمثلت قول القائل:

أرى لدهري إقبالاً وإدبـــارا
فكل حين يُري للمـــرء اخبـــارا
يومًا يريه من الأفراح أكملها
يومًا يريه من الأحزان أكـــدارا

وكل شيء إذا ما تم غايته

أبصرت نقصًا به في الحال إجهارا

فلا يغر لصفو العيش مُرتشد

لإن إحسانه مازال غرارا

ولا يَخفى أنه كان بنفسي، أثناء ذلك، الكثير من الخوف والوجل والاضطراب والوحشة للمغادرة والبعد إلى أرض مجهولة، وبقعة ما كنت قد سمعت عنها قط، أو عرفت أنها أرض معلومة من أراضي المسكونة، ولكني كنت أقول متأسيًا لروحي أيضًا: ما قدر الله شاء، وكانت شدة تأثري إنما هي على أولاد أختي حميدة: على وحسين وعبد الصمد وخضرة، وهم العيال الأيتام الذين فقدوا أباهم وقت وباء الهواء الأصفر المعروف بالكوليرا، وكنت قد خلّصتهم من رقبتي التي تكالبوا عليها ساعة الوداع بصعوبة، وأنا أعدهم بجلابيب جديدة وحلاوة من بر مصر عند عودتي، ودموع العين محتبسة تكاد تفر من مآقيها.

الصفحة ـ ٩ ـ

ولقد ارتحلنا في زمهرير الشتاء، عند صباح يوم لم تطلع شمسه، كان الثامن من يناير الإفرنجي، أي طوبة المصري من العام ١٨٦٣ من بور الإسكندرية المعمورة على النقالة الفرنساوي المسماة "لاسين"، وكانت الأورطة بكامل لباسها وعتادها، وكان جُل جنودها شبانًا ذوي بُنى قوية ومنظر حسن كخليفة سودان،

وبخيت خميس، وكودي الفيل، وسعيد الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وانجلو حبيب الله، وسعيد كورد كتلي، وكوكوسندالله، وجفوله درع الفيل، ونيانتده، وغيرهم بالإضافة إلى ترنبيته جي فرج صدق، وبروجي عبد النبي عبد الكريم، وجميعهم صُرفت لهم قبل رحيلهم ملابس من صنف التيل بسترات قصيرة، بحيث كان لكل جندي طقم كسوة وقميص ولباس وزوج جوارب وسجادة وبطانية وكبود، وكان لكل ضابط كسوة من الكساوي المخصصة للضباط المشاة وإسبالتات حسب علو رتبة كل منهم، كما أن الخيام التي ستكون مأوىً لهم، ثم اختيارها من الخيام الجيدة النظيفة، والحقيقة أن زي الجنود كان غاية في الروعة والاحتشام، فالبزات المطبقة على الصدور العريضة ذات الياقات القصيرة والأزرار النحاسية المصطفة، أضفت على أفراد الأورطة جلالاً وجمالاً، وكانت ألبسة الضباط كألماس أفندي تزيد على ألبسة الجنود في ضروب التطريز وتزيد على كسوتهم أيضًا بصدرية ذات أزرة يلبسونها تحت السترة، وكانت جميلة تكسب الضباط رونقًا ومهابة، وكانت ملابس الضباط تختلف عن ملابس الجند في نوع الجوخ ولونه أيضًا، وكذا أنواع الشارات التي تبيّن الرتب فالأمباشي كان يحمل على صدره شريطًا واحدًا والجاويش اثنين والباشجاويش ثلاثة، والصول نصف هلال من الفضة والملازم الأول نصف هلال ونجمًا من الفضة أما الذهب فكان للقائم مقام الذي يؤشر بنجم ذهبي وهلال مرصع بالألماس، وهكذا.

وكان مولانا الخديو سعيد قد أمر وشدّد على أن تكون ملابس الجـنود غاية في الدقة والإتقان حتى يبدوا بمظهر مشرف مشوّق يلـيق بمصـر وعظمة عسكريتها، والمعروف أن هذا الرجل ــ والحـق أقول ــ كان مهووسًا بكل مظاهر العسكرية وعنجهيتها، وكـان مثله الأعلى ــ كما أدركت من ألماس أفندي ــ العسكرية الفرنساوية وخصوصًا هندامها، وهو الذي ابتدع التجنيد على هدي جـدول عـام للمواليد في عموم أنحاء القطر، لتكون الدعوة إلى العسكرية فـي حينها أمرًا يتم من تلقاء ذاته، فضجت البلاد في بـادئ الأمر وتململت، لكنها انتهت إلى الطاعة والامتثال، وخلال لحظـات الصـعود إلى النقالة لاسين، بدا المشهد مهيبًا، يجل عن الوصـف، ومُلجمـاً إلجامًا لبلاغة البليغ، ويعلو عن قدرة اللبيب الأريب فما إن بدأ الترنبيته جي فرج صدقي يصدح ببوقه بمارش الـوداع والمغـادرة، حـتى جاشـت مشـاعر الجميع، الراحلين والمودعيـن لهـم، ولا أظن أنني سأعيش مثل هذه اللحظات مرة أخـرى مهمـا حييـت، وقـد اقشعّر بدني رهبةً وفرقةً والتياعًا، ونظـرتُ الوجـوه المجتمعة جميعها، فأبصرت دموعًا فرّت من المآقـي، ودموعًـا دونهـا تحجرت واستقرت في مكامنها، وثمة مـرارات استشـعرت طعمهـا فـي الحلوق اعتصرت الجميع، وعُـبّر عـنها بالتـنهّدات الطويلـة المتحسّـرة، ناهيك عن جز الأضـراس، وابـتلاع الهـواء وقد غاب عن الصدور بين الفينة والأخرى.

الصفحة ـــ ١٠ ـــ

وقد خاضت لاسين غمار البحر الرومي، حتى وصلت بنا إلى الميناء الفرنساوي طولون، وهناك خرج إلينا ضباط وجنود من الفرنساوية المعنيين والمعينين للحرب في مكسيكيا، وكان كل شيء على ما يرام، غير أنهم تنبهوا إلى أن الأورطة المصرية لديها سلاح يخالف أسلحة الجنود الفرنساوية، إذ كانت قد صرفت في مصر للعساكر بنادق من نوع الشخشانة المقلوب ومنعت عنهم الذخائر إلا حين الوصول إلى مكسيكيا، خوفًا من استخدامها في ما لا تحمد عقباه لا قدّر الله، مثل أن يحدث تمرّد من الأنفار والجنود، أو أن يستخدم في منازعات بين أفراد الأورطة، ولعل ذلك كان واردًا، بسبب رداءة الأطعمة، ومشقّة السفر، وكثرة المشاحنات الناجمة عن ذلك.

وبدأ تداول الأمر بين القادة الفرنساوية والمصرية بعد أن ظهرت المتاعب والعراقيل من جهة الذخيرة، فما كان من الفرنساوية إلا أن قاموا بتوزيع أسلحة فرنسية على جميع أفراد الأورطة، وتم إيداع أسلحتهم في مخازن الجيش الفرنسي بطولون، على أن يستردوها عند رجوعهم إلى مصر، وكان التفاهم بين أفراد الأورطة المصرية والفرنساوية صعبًا للغاية في بداية الأمر، فلا أحد منا يعرف رطانتهم اللاطينية، وهم لا يعرفون لغة القرآن، غير أن هذه المعضلة سرعان ما حُلّت وتم تداركها، فقد قام الفرنساوية باستخدام بعض الجنود الجزائريين الذين كانوا معهم

فـــي حـــرب مكســـيكيا للترجمة بينهم وبين سائر الجنود من أبناء الفــرقة، فتم معرفة احتياجاتها وما تعذر في معايشها وحياتها كل يــوم. فلمـــا تم ذلك كله وانتهى، واصلت لاسين الإبحار مخترقة المحـــيط العظـــيم، ذا الأمواج الجبّارة والمياه التي لا حصر لها، وخـــلال السفر الطويل الذي دام سبعة وأربعين يومًا، مات سبعة مـــن الجنود، خمسة منهم أصيبوا بحمّى حار الأطباء في توصيفها وعلاجهـــا فـــتم عـــزلهم بعـــد أن عجزت العقاقير والأشربة عن علاجهـــم، أما الآخران، فقد كان من أمرهما أن أحدهما سقط من أعلـــى الصـــاري أثـــناء صعوده إليه عند الظهيرة بسبب اختلال توازنه وتعذر انتشاله لهيجان الأمواج وعلوّها، والآخر اختفى ولم يعثر له على أثر حتى الآن، ولم تعرف كيفية موته، وهذا المسكين مـــثله مثل الكثير من الجنود الذين في الأورطة، كان قد تم الإتيان بـــه مـــن الغابة وهو لم ير البحر أبدًا، وكان يظن مثلما ظن غيره مـــن الجـــنود أمثاله أن هدير المحيط إنما هو زئير وحش مغمور بالمـــاء، سيخرج على حين غرة ويلتهمهم، فكان المسكين يصرخ بيـــن حين وآخر دون أن يجدي معه تكدير أو ضرب أو تقويم، أو أن تفلـــح معه عقاقير مهدئة، أو قراءة آيات قرآنية مطمئنة، كنت أقـــرأها علـــى رأســـه وأقوم برقايته، والمصيبة أن المسكين كان مصابًا أيضًا بآفة المشي أثناء الليالي، فرجّح بعضهم ــ وقد يكون مصيبًا ــ أنه سار والجميع نيام، وربما ألقى بنفسه إلى الماء دون أن يـــدري أو يسمع نداءه طلبًا للإنقاذ أحد، غير أن جثته لم تظهر قـــط، ولـــم تطف طوال الأيام التالية لاختفائه، فصلّينا عليه صلاة

الغائب، مثلما صلّينا على الخمسة الآخرين الذين تلفوا، ثم إننا ربطنا كل واحد منهم بحجر، وألقيناهم في الماء حتى تغوص جثثهم فلا تطفو وتأكلها الأسماك المتوحشة.

ثم إنه يوم وصولنا إلى بلدة تدعى فيراكروز وهي أكبر فرضة في مكسيكيا..

الصفحة ـ ١١ ـ

كان الثالث والعشرين من شهر فبراير الإفرنجي، وكانت الأورطة بقيادة البكباشي جبرة محمد أفندي ووكيله ألماس أفندي وهما من أفاضل الرجال وأشدهم عزمًا وبأسًا.

- ولم يكن ذلك الاضطراب، وكما سبق أن قلت، إلا بسبب أنني لم أر من قبل كل هذا الماء المالح الكثير، فحتى بحر النيل في وقت أسمى الفيضانات لم يكن ككل هذا الماء الهادر الذي رأيته بالمحيط، فأي وجل داخلني، وأي خوف أخذ بي من ناصيتي حتى أخمص قدمي، فلئن احتملت بحر الروم رغم مصاعبه على مضض وكره، ضارعًا، صائمًا، مصليًا، طالبًا من الرحمن الرحيم أن يرحمنا برحمته، ويمنّ عليَّ وعلى من معي بالنجاة، فما بالك بهذا المحيط الجبار ذي الأمواج المصطكة المصفقة التي راحت تتلاعب بالنقالة في رعونة واستخفاف وكأنها ورقة في شجرة تطوحها أراجيح الريح، ورغم أنني مُنحت رتبة نفر، ودُربت على استخدام البارود، وجُربت في العوم والسباحة، إلا أن الخوف ظل

ينازعني ويعصف بقلبي، ورغم مودّة الفرنساوية لي، واحترامهم لكينونتي الدينية في كل سكنة وفي كل هنة عند تعاملهم معي، إلا أن الطعام لم يكن على ما يرام وقد تعفنت بعض مؤن الفول والأرز بسبب رطوبة البحر، ونفقت بعض الخيول، وبقيت الخيّالة دونها على أمل استعواضها عند الوصول، كما أن الصراصير البحرية الطيارة التي لم أر مثلها حجمًا من قبل، قد عاثت فسادًا في نواشف الطبخ من أمثال البامية والملوخية والكشك الصعيدي والفريك، لكن يشاء السميع العليم أن يكفينا ما تبقى من مؤن حتى وصولنا إلى فيراكروز.

الصفحة ـ ١٨ ـ

وكان جل الجنود والأنفار من الرجال السودان الذين جلبوا جلبًا من بلاد السودان والنيل التحتاني ومناطق العبيد، وأكثرهم كانوا ممن صيدوا أو بيعوا في أسواق الخرطوم وكان الباشا الكبير ولي النعم يأتي بهم للمتاجرة ضمن تجارته الوسعة مع الإفرنج، وكان هؤلاء في جملتهم شبانًا حديثي العمر ذوي قامات مديدة وجسوم قوية شديدة وهم لا يشبهون في لونهم أهل أمي الذين زرتهم معها في صغري مرة نواحي بلاد النوبة، وكانت الحكومة قد اختارتني لهذه البعثة أيضًا بسبب لوني وأصلي السوداني النوبي، وكنت قد ابتليت بداء الجهادية، وخدمت في الجيش قبل أن أكمل تعليمي الأزهري منذ زمن، فقد سرى وطبق

عليّ ما سنّه الخديو سعيد من سنة وهي أن كل شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره يخدم في الجيش إلزاميًا سنة واحدة لا غير، فلما أبليت فيه بلاء حسنا، أي الجيش، وكنت نموذجًا للجندي الكفء استبقوني فيه، وصرت نفرًا ولكن ذلك لم يحل دون حرصي على إكمال علومي الأزهرية التي سعيت إليها سعيًا دؤوبًا، وقد علمت من ألماس أفندي وهو سوداني الأصل، أن شروط الفرنساوية مع الخديو كانت أن يمدهم بجنود من السودان السود، وكذلك كل من يذهب معهم ويخدم عليهم بأي أمر من الأمور، وقال ألماس أفندي أن الفرنساوية ما أرادوا ذلك إلا بسبب أن سواد البشرة يقي ويقاوم ما بهذه البقعة مكسيكيا من أمراض وصعوبات لا يقوى عليها البيض من الفرنساوية والفرنج، ورغم أن أبي أبًا عن جد كان من بلدتنا حُفن السوهاجية إلا أن أمي كانت نوبيّة وهي التي أنعمت على العبد لله بسواد الجلد ودكونته، وكذا كثافة الشعر وخشونته، وكانت الوالدة في الأصل جارية أعتقها الوالد بعد أن بنى بها وأنجبتني لأن زوجته الحرّة الأولى لم تنجب له غير الإناث، وها هي حكمة العزيز الجبار تتجلى فأذهب إلى ما لم أفكر فيه يومًا ولا جال بخاطري أبدًا من هجرة الأوطان ومفارقة الأحباب والخلان، وأحمد الله أن أمي ماتت قبل أن ترى هذا بعينيها وإلا كانت تحسّرت وتلوعت وكمدت موتًا لفراقي وكما قيل:

وعودت نفسي الضيق حتى ألفته

وأخرجني حُسن العزاء إلى الصبر

الصفحة ــ ١٩ ــ

ومــن المفارقات في هذه الرحلة هو أنني تعرفت على بعض الطباخيــن المجلوبيــن مــن أسوان لمباشرة كل ما يخص طعامنا وشــرابنا أثناء الرحلة وقد رسُموا جميعهم جنودًا أيضًا، وكان من بيــنهم الــنفر سلمان الدرديري الذي طالما كنت أسامره في الليل، وهو من أشتهر في الأورطة بعمل الأعمال وفك العكوسات وإتيان التنجيم، وقد قال إنه نجومي أبًا عن جد، لكن أباه حرّم عليه كسب قوته من هذا الأمر واستحلفه على المصحف أن يكون كل ما يطلع عليه خدمة لوجه الله تعالى وفعل الخير، وكنت كثيرًا ما أمازحه وأسمعه ما قاله البهاء زهير في ذلك إذ قال:

لا ترقــب النجم في أمر تحاوله فــالله يفعــل لا جدي ولا حمل
مــع الســعادة ما للنجم من أثر فــلا يغــرك مــريخ ولا زحل
الأمــر أعظــم والأفكار حائرة والشرع يصدق والإنسان يمتثل

فكان يتضايق قليلاً وكأنه يستشعر أنني أستخف بما يستهويه، لكنه سرعان ما يتفرس في وجهي ويبش مرة أخرى.

الصفحة ــ ٣٥ وما تلاها ــ

وفــي ٢ أكتوبر الإفرنجي سنة ١٨٦٣، وفي الساعة السابعة صــباحًا بــارح القطار العادي محطة فيراكروز، ميممًا السوليداد

وكـــان يقوم بحراسة هذا القطار أربعة عشر جنديًا منهم سبعة من الـــبلوك الأول مـــن بحـــارة جزر الأنتيل والسبعة الآخرون من الأورطـــة الســـودانية المصرية وهم بخيت بدروم الجندي الأول ورئيس الفصيلة، وبلال حماد الجندي الثاني وأتوم سودان جندي، وإبراهيم عبد الرحمن ومحمد عبد الله، وعمر محمد، ومحمد على، وجمـــيعهم جـــنود، وكـــان القطار مؤلفًا من عربات للمسافرين، وأخـــرى للبضاعة، أما عدد المسافرين من الأهالي فكان أربعين، وكـــان مـــن بيـــن هذا العدد مسيو ليجبيه رئيس أورطة في ألاي الأجانـــب، ومسيو شرر ملازم من بلوك المهندسين الوطني ومن أهالـــي جوادلـــوب، ومسيو بونتايل ملازم ثان في حرب القارات جـــريلا ومسيو ليونز مدير السكك الحديدية، ومسيو فرنك رئيس مهندســـي الســـكك الحديدية، ومسيو سافيلي قس الشوليداد، وعدد كبـــير مـــن النساء والأولاد والعبد لله ساطر هذه السطور، وكان القطار متجهًا إلى تيزاريا بسرعة تتراوح بين ١٥ و١٦ كيلو مترًا فـــي الســـاعة ووصل إلى موضع يقال له لوما دولاريفستا حيث الطـــريق عرضه أربعة أمتار تقريبًا بين سفوح الجبال المجللة من الجانبين بالأحراش والآجام الكثيفة وكان فيها منحن وعر، وعندئذ لمح سواق القطار بعض القضبان منزوعة من أماكنها وفي الحال حـــول قـــوة الـــبخار محاولاً الرجوع إلى الخلف، غير أن القطار برمـــته استمر هنيهة سائرًا في طريقه مدفوعًا بقوة سرعة سيره، فســـقطت عـــندئذ العربات الأولى ولم يستطع أحد أن يدفع حدوث هذه الكارثة.

وكنت خلال ذلك منشغلاً بالفرجة على تلك الآجام الشاهقة ذات الألوان الخضراء المتدرجة ومختلفة التباين والتي ما كنت قد شاهدت مثلها من قبل، ولقد روى لي تفاصيل ما حدث شهود العيان الذين كانوا في العربة الأمامية بالقرب من السائق، وقد قال لي بخيت بدروم الجندي الأول إنه سمع بعد سقوط العربات الأولى دوي إطلاق المدافع بشدة من جانبي الطريق، وكان اتجاه الطلقات من أعلى إلى أسفل، ولم يكن في حيز الاستطاعة رؤية المهاجمين، فجرح سائق القاطرة وشخص من المسافرين، وعلى إثر ذلك، أسرع بالرجوع من العربات كل من نزل منها واتخذ القائد ليجييه خطة الدفاع، ونزل ليفحص الموقع وينظر فيما إذا كان في الإمكان الهجوم على العدو من الجنب، وفي غضون هذا الاضطراب الشامل وبلبلة الأفكار الناشئة من خروج القطار عن طريقه، ومن ولولة النساء وصياح الأولاد، وحيرة كافة المسافرين، ما كان يساور رؤوس السبعة المصريين غير فكرة واحدة ألا وهي القيام بواجب وظيفتهم وأن يستعدوا لإطلاق النيران على الأعداء، إذا لاحت أشباحهم وبانت، وكانوا ينتظرون وهم متخذون من جوانب العربات موقى لهم، في الوقت الذي يشتبكون فيه في القتال مع العدو برباطة جأش جديرة بالثناء العظيم والإعجاب المتناهي، وعندما وقع نظر جميع رجال الحرس على القائد ليجييه وهو نازل من العربة تبعوه ليقوموا بتنفيذ أوامره، ورغم شدّة إطلاق النيران، أمكن استكشاف مواقع العدو بلا عائق لأن هذه النيران مع شدتها لم تكن فتاكة، وما ذلك

إلا لأن المكسيكيين كانوا مضطرين أن يلبثوا محجوبين عن الأعين كيلا تصوّب نحوهم طلقات البنادق.

ولما تحقق القائد أنه ليس في الاستطاعة الهجوم على العدو من الجنب، أراد أن يهاجمه وجهًا لوجه، فقذف بالأربعة عشر جنديًا إلى المرتفعات، ولكن هذه كانت مغطاة بالآجام المتناهية الكثافة فُما استطاعوا تسلقها واضطروا أن يرتدّوا على أعقابهم واتخذوا من العربات مرة أخرى وقاية لهم، وفي غضون هذه الحركة أصيب القومندان ليجبيه بجرح مميت وجرح أيضًا جندي من البحارة، فبث هذا الحماسة في نفوس المهاجمين فضاعفوا الطلقات، وصار لا محيص من التقهقر، وفي اللحظة التي كان يصعد فيها القومندان ليجبيه إلى العربة بمساعدة بلال حماد، أصيب هذا بطلق ناري فخر صريعًا وقضى نحبه، وعندئذ تطوع بخيت بدروم، وأتوم سودان وحملا أولاً القومندان ليجبيه ووضعاه في عربة السكة الحديد، ثم رجعا إلى بلال حماد، وكانت تحميهما في هذه الفترة نيران من بقى من الحرس المبعثرين خلف جميع العربات.

ومن هذه الساعة تسلم الملازم شرر القيادة العامة، ورتب رجاله بطريقة عملية تُمكّن من تلاشي كل محاولة هجوم يقوم بها المكسيكيون لأخذهم عنوة، ثم أرسل أحد رجال السكة الحديد إلى تيجيريا وإلى فيراكروز ليعلموا رياسة القومندانية بموقفه ويطلبوا منها إرسال نجدات.

وكانت تيجيريا في ذلك الوقت تحتلها فصيلة من السودانيين

المصريين مؤلفة من ضابط واحد، وخمسة وأربعين جنديًا وكانت هـذه الفصيلة تحت إمرة الملازم الثاني رازود من ضباط الآلاي الأجنبي، وهذا الضابط كان قد أخبره جواسيسه من الصباح الباكر بـأن عـددًا عديدًا من المكسيكيين يتألف من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائـة رجل تقريبًا يضربون في جوانب القطار، فما كاد يبلغه هـذا النبأ حتى قام بكتيبته المصرية السودانية مسرعًا وولى وجهه شطر اللومادولاريفيستا سالكًا أقصر الطرق.

واسـتمرت رحى الحرب دائرة في غضون هذه الفترة، وكان رجـال حـرس القطار يصوبون بإحكام بنادقهم على المكسيكيين ولابـد أن نيرانهم ألحقت بهؤلاء أضرارًا بالغة، ويستدل على ذلك من أنهم أرادوا مرارًا تخليصهم مما حاق بهم من الضيق والكرب أن يحـاولوا النزول من الجبل لينازلوا الحرس جسمًا لجسم، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء وفشلت فشلاً تامًا، وقتل أتوم سودان رجلين مـنهم كانـا قد وصلا إلى مكان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار، وظـل العـدو يشـن الغـارة أكثر من ساعة حتى بدا في طلقاته الـنقص، ثم فترت فجأة وانقطعت بعد دقائق معدودات ومع هذا لم يشـأ مسـيو شرر أن يخرج عن دائرة خطة الدفاع خوفًا من أن يكـون انقطـاع النـيران حـيلة مدبرة، وظل وقتًا يسيرًا ملازمًا التربص، ثم عقب ذلك ذهب رجل من الهنود المحليين للاستكشاف ولـم يلبـث أن عاد وأخبر أن المكسيكيين أخبروا رئيسهم بقدوم حامـية تيجـيريا فشدوا رحالهم وتركوا الميدان اتقاء الوقوع بين نارين.

وتسنّى عندئذ لحرس القطار أن يستريحوا ويتنفسوا الصعداء ويعــاونوا المجروحيــن، وبلغــت الخســائر مبلغًا لا يستهان به، فأدركــت المنية القائد ليجيبه وكان بلال حماد على وشك أن يطلع ســره الإلهــي، فوقفت على رأسه مع الواقفين وأنطقته الشهادتين بصــعوبة، ثــم أذّنت الآذان في أذنه والدموع ذوارف من الجميع عليه حتى أكرمه العلي القهار بلقائه وأراحه مما هو فيه من عذاب ومعانــاة، وكان القس سافيللي معنا، فقام بواجبه الديني تجاه القائد ليجيــيه أيضًــا، وكذا السائح المكسيكي الذي كان في القطار وقتل كذلــك على الرغم من جروح ساقه وكتفه ونزيف الدم منه خلال ذلك الوقت.

وكــان مما أفاد في عدم وقوع خسائر كبيرة، هو وجود تلك الكوكــبة الراكــبة المؤلفة من خمسين فارسًا من جنود الأورطة، والتي كانت قد تقررت من قبل لتقوم بالاستكشاف وحراسة السكك الحديديــة، على أن تعامل معاملة المساعدين المكسيكيين من حيث الراتب، فيتحصل لأفرادها ما يتحصل للآخرين من مكسيكيا على مكافأة إضافية من بلدية فيراكروز نظير معاونتهم لشرطة المدينة.

رفعــت رأسي عن أوراق الشيخ عثمان، وفركت عيني قليلاً، ربمـــا لأتيقن من أنني لست في حلم من الأحلام، وداخلني شعور بأنني بطل هــ. د. ويلز في رواية آلة الزمان التي كنت قد قرأتها مبســطة ذات يــوم وأنـــا تلميذة صغيرة في المدرسة الإعدادية، وساءلت نفسي: هل دخلت آلة الزمان حقًا؟، فلقد كان كل ما قرأته لــتوي يتجسد أمامي وأراه شخوصًا ومواقف، وكأني أتفرج على فــيلم من أفلام الغرب الهوليوودية في السينما، مددت بصري عبر الــنافذة المفــتوحة علـــى مصـــراعيها أمامي حيث البناية العالية المحاصرة للأفق، وقد رسم عليها شاب بملابس الكاوبوي يمتطي صـــهوة فرس ويدخن سيجارة وقد كتبَ فوق قبعته "ويسترن مذاق الغـــرب".. تـــنهدت وتساءلت مرة أخرى "هل كان الشيخ عثمان مؤرخًا؟. أم أن ما كتبه كان نوعًا من المذكرات الشخصية، ولماذا ســجل تفاصـــيل المعارك على هذا النحو الدقيق وهو في غربته البعيدة؟".

• أخرجني صوت عمتي الناعم من تأملاتي، وجاءني ممزوجًا بضـــجر، يـــنذر برغبتها في جولة من المشاحنات معي بحثًا عن إثارة وتزجية للوقت، إذ سمعتها تقول:

ـ مـــالك قاعدة مبحلقة في السقف وكأنك ناوية أن تحضّري الأرواح؟، أعمل لك الشاي، أنا عاملة لنفسي قهوة؟.

ـ آه. عاوزة الشاي.

ـ في نادي السينما الليلة فيلم لجون واين، يتهيأ لي أنه حلو، لـــو خرجـــتِ هاتِ معك خلطة لب أبيض وفول سوداني من غير ملح.

عمتـــي مولعة بالفرجة على أفلام الويسترن، ومنذ أن وعيت علـــيها وأنـــا طفلة صغيرة، كانت تدفع إلى روحي بمهرجان من الفـــرح، عندما كانت تصحبني معها لمشاهدة واحد من هذه الأفلام في سينما روكسي أو سينما أوديون أو مترو، لكني في الحقيقة، لم أكـــن أنـــبهر بهذه الأفلام، قدر انبهاري بالستائر المخملية العالية الضـــخمة، وبأسد شركة مترو جولدن ماير الرابض على الشاشة وهـــو يـــزأر محركًا رأسه الملبد ذات اليمين وذات اليسار، ثم ما يكـــون قبل العرض من أفلام كارتون كانت تقدم للأطفال في ذلك الزمن البعيد ولا أراها في السينما الآن أبدًا، كدت أقول لها: اقرئي أوراق الشـــيخ عثمان، إنها أقوى من جون واين وكلينت إستوود، لكنـــي ســـرعان ما تداركت أن هذه الأوراق ليست مشاهد خيال وليست للمرح والتسلية، بل هي أوراق تاريخ حقيقي لبشر من لحم ودم، بشـــز عاشـــوا ومـــاتوا دون أن ينتـــبه إليهم أحد، ودون أن يتذكرهم أحد ذات يوم.

فكّـــرت وأنـــا أذيب ماسات السكر الدقيقة في بحيرة الياقوت الســـاخن القابعة داخل الفنجان الذي وضعته أمامي عمتي، أن آخذ

هذه الأوراق، وأقدمها لواحد من أساتذة التاريخ في الجامعة، فربما يجد فيها ما لم أجده أنا، باعتباره متخصصًا في هذا المجال، وفكرت أن أهدي هذه الأوراق القديمة لدار الكتب والوثائق المصرية، بعد أن أقنع رودلفو بذلك، ولكن شعورًا غريبًا سرعان ما داخلني، إذ أحسست أن هذه الأوراق ملكي شخصيًا ولا يجب أن أفرط فيها لأي شخص أو جهة مهما كانت الأسباب، وربما كان مرجع هذا الشعور هو حالة الفضول العارم التي تملكتني، لمعرفة ما الذي تحويه بقية الصفحات التي لم أقرأها بعد، وبدأت أتفهم أحاسيس أولئك الذين يعثرون على قطع أثرية قديمة، أو يكتشفون بالصدفة أشياء تاريخية؛ إنه شعور ناعم، أملس، يتسلل شيئًا فشيئًا كسيل طاغ ويكتسح النفس مجتاحًا كل رغبة مبهمة وكامنة في أعمق أعماقها، تهفو إلى العيش في زمان ماض قديم، زمان مستحيل التحقق أو الحدوث أبدًا، فالحقيقة هي أن الإنسان لا يحلم بالمستقبل، لكنه يحلم بالماضي، ماضي أجداده الأقدمين الذين لم يعايشهم، ولم يلمسهم أو يتحسسهم أبدًا كبشر وكحيوات عاشت وينتمي إليها، لكنه يتمنى الحلول فيها ليخوض في عوالمها السرّية المبهمة البعيدة.

انقضـــت عدة أيام أخرى، قبل أن أعود ثانية إلى الأوراق جد رودلفــو المثيرة، كنت قد انشغلت خلالها بالعمل اليومي الضاغط لمهـــنة المحامـــاة، فقـــد سفحت وقتي خلال هذه الأيام في الجري واللهاث داخل أروقة المصالح الحكومية للحصول على توقيع من هـــنا أو ختم من هناك، أو في استخراج ورقة رسمية تضاف إلى ملف قضية كدليل من الأدلة أو ثبت من الثبوت، وكان ذلك يستلزم أحـــيانًا، الوقـــوف طويـــلاً أمام الموظف المختص في طابور من الطوابـــير، أو العـــودة في اليوم التالي لأن الموظفة المسؤولة عن ختم النسر حدثت لها ظروف طارئة وأخذت إجازة عارضة.

حضـــرت خـــلال هـــذه الأيـــام أيضًا ندوة عن "حدود حرية التعبـــير" فـــي جمعـــية "نصرة الحق الإنساني" التي أنتمي إليها، واســـتمعت خلالها إلى أحناك كثيرة بقبقت بالكلام دون أن أستفيد مـــن ذلـــك شيئًا أو أخرج بنتيجة عملية. عمتي كعادتها، كان لها نصـــيب لا بأس به في التهام وقتي، فأصرّت أن أذهب معها إلى شـــارع عـــبد العزيـــز، لتشتري سخانًا جديدًا، بدلاً من التالف في البيـــت "لأنـــك شـــاطرة في الشراء يا خالدة وتعرفي الماركات الممـــتازة". والنتيجة كانت ضياع نصف نهار حتى نعود بالسخان

ويتم تركيبه لأنه ووفقًا لعمتي: إلا السخان، لا يمكن الاستغناء عنه والانتظار أبدًا.

اليوم، ذهبت إلى مجمع المحاكم بالعباسية مع عدد من زملائي في المكتب، كنت في حالة مزاجية لا مبالية وأرغب برغبة حقيقية في النوم، رغم أنها كانت العاشرة صباحًا، إضافة إلى ضيقي بالزحام وصداع خفيف يبدأ عمله في رأسي، كان دورنا في الرول هو التاسع، وبينما كنت جالسة مع زملائي ننتظر، وقعت نظراتي على مانشيت بصفحة داخلية من صفحات جريدة الأهرام، مما جعلني أتحمس قائلة لزميلي الجالس إلى جواري يطالعها:

– والنبي يا أستاذ سيد هات الجورنال دقيقة واحدة من فضلك، أبص فيه وأرجعه لك بسرعة.

كان المانشيت عنوانه: "بطولة الأورطة المصرية في المكسيك".

وتحته كتب د. عبد المنعم الجميعي، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة فرع الفيوم مقالاً قصيرًا حول اشتراك الجيش المصري في حرب المكسيك التي كانت ناشبة بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة وفرنسا وإسبانيا من جهة أخرى، وبدا السبب مذهلاً بالنسبة لي ألا وهو أن إمبراطور فرنسا نابليون الثالث طلب من سعيد باشا والي مصر آنذاك، مده بفرقة من الجنود السودانيين لأن الحمى الصفراء منتشرة في المكسيك حيث تدور المعارك بين الطرفين المتصارعين والجنود الفرنسيون

يموتون بهــا ولا يستطيعون مواصلة الحرب نظرًا لشدة حرارة الجو هناك وانتشار الرطوبة والمستنقعات.

تعجبت بشدة وتساءلت محدثة نفسي بصوت عال:

ـ طيــب وما علاقة مصر بالمكسيك؟ المكسيك لم تشن حربًا ضــد مصــر، ومصر بعيدة جدًا عن المكسيك، فلماذا يقاتل جنود مصر والسودان هناك؟

رفــع ســيد صاحب الجريدة رأسه مندهشًا عن جريدة أخرى كانت معه وشرع في قراءتها وتساءل:

ـ مالك؟

ـ أبدًا.. وتابعت قراءة مقال د. جميعي:

وقــد أبلت هذه القوات في الحرب بلاء حسنًا، حيث اشتركت فــي ثمانــية وأربعيــن موقعة من الفترة الواقعة ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ و١٢ مــارس سنة ١٨٦٧، أظهرت خلالها مهارة واضحة فــي القتال وثباتًا وشجاعة شهد لها الماريشال Fory قائد الجيش الفرنسي بقوله "إن هؤلاء ليسوا من الجنود، بل هم من الأسود".

كدت أضرب كفًا بكف وأنا أقول لنفسي: إذن جد رودلفو كان هــناك، أوثمــانو كان مع الجنود السودانيين أو الأسود كما رآهم فــوري لم أتمكن من إكمال ما تبقي من سطور المقال، إذ نادى حاجب المحكمة على رقم قضيتنا في الرول، وحكم القاضي خلال عشرة دقائق في قضية ضرب أفضى إلى موت، وخسرناها بسبب عــدم ثبوت الأدلة وضعف المقدم منها، وكسبها الخصم الذي كان جــزارًا ضــرب موظفــا في هيئة التأمين والمعاشات أثناء شراء

الأخير اللحم منه، واكتشافه غش الجزار في الميزان.

عندما خرجنا من المحكمة قلت لزميلي الذي بدت دهشته لعدم مبالاتـــي بنتـــيجة الحكـــم في القضية والتي سنستأنف الحكم فيها بالضرورة:

ـــ ســـيّد والنبـــي عـــاوزة صـــفحة من جورنالك ضروري، محتاجة أكمل قراءتها، أرجوك.

رد بمزيد من الاندهاش:

ـــ عاوزة صفحة الوفيات؟ ولا صفحة الإعلانات المبوبة؟

ـــ لا وفـــيات ولا إعلانـــات، صـــفحة الرأي والمقالات التي لا يقرأها أحداً.

بدا لي لغز جد رودلفو قاب قوسين أو أدنى من الحل، وكنت حـتى ذلـك الوقـت أظـن أن خيوطه قد أخذت تتجمع في يدي، وصـرت متحمسة تحمسًا لا حد له لقراءة بقية الأوراق والوصول إلى عائلة رودلفو في مصر.

قـررت القـيام بإجازتي السنوية من مكتب المحاماة، وكان قـراري مفاجـئًا لصـاحب المكتب ولزملائي إذ جاء توقيته قبل شـهرين ممـا كنت قد اتفقت عليه بخصوص ذلك، وقلت لهم في جمعـية "الحق الإنساني" إنني مضطرة للسفر مع عمتي إلى بلدنا، فبدت الدهشة في أعينهم إذ اكتشفوا أن لي بلداً.

درت علـى المكتـبات أبحث عن كتب تاريخية تتناول حملة المكسـيك فلم أجد كتابًا واحدًا يتعلق بهذا الموضوع، سألت أساتذة تاريخ معروفين عن أية دراسات أو أبحاث قام بها باحثون تتناول هذا الأمر، أو بطولة الأورطة المصرية كما قال د. جميعي دون جـدوى، قيل لي إن هناك كتابات عن موضوعات أخرى. وجدت أخـيرًا كتابًا كتبه د. لينوار تشامبرز رايت، ترجمته وعلقت عليه د. فاطمـة علم الدين عبد الواحد ووجدتني أتوقف عند فقرات فيه وأقرأ:

"وقـــد أفســد العلاقات الطبيعية الودية بين الولايات المتحدة الأمريكــية، ومصـــر خلال الحرب الأهلية الأمريكية حادث غير عادي، وإن كان عديم الأهمية، حين أرسلت مصر قوات سودانية للخدمـــة مع القوات الفرنسية في المكسيك، ففي عام ١٨٦١ قامت فرنسا وإسبانيا وبريطانيا باستغلال فرصة تورط الولايات المتحدة فـــي الحـــرب الأهلية الأمريكية، وقاموا باحتلال فيراكروز تحت زعـــم حمايـــة اســـتثماراتهم المالية، وفي أبريل ١٨٦٣ انسحبت إنجلترا وإسبانيا تاركين نابليون الثالث يحارب بمفرده.

وفـــي ٧ يناير ١٨٦٣ عرف في الإسكندرية أن ما يقرب من خمســمائة ســـوداني قد حملوا على سفينة نقل فرنسية للخدمة مع قـــوات نابليون الثالث في المكسيك، ولم يذكر الراسل إلى الإدارة الأمريكـــية في رسالته عن المقابل ـــ إذا كان هناك مقابل ـــ الذي حصل عليه الوالي المصري".

"وقـــد عرف في أغسطس سنة ١٨٦٥ أن هناك حوالي ٩٠٠ ســـوداني آخريـــن على استعداد للإبحار إلى المكسيك وجرت هذه العملـــية بصفة علنية، إذ أبلغ وكيل وقنصل عام الولايات المتحدة في الإسكندرية بها مقدمًا، وكانت حجة الحكومة المصرية أن هذه القـــوات لا تـــتعدى كونهـــا اســـتبدالاً للقوات الموجودة فعلاً في المكســـيك، ولذلـــك فهـــي تعتـــبر جـــزءًا من الاتفاق الأصلي مع الفرنسيين، كما وافق الباب العالي على ذلك الاتفاق".

"وقد أتاحت النهاية الناجحة للحرب الأهلية الأمريكية الفرصة لحكومـــة الولايـــات المـــتحدة لتوجيه عنايتها الكاملة إلى المسألة

المكسيكية، لقد كان استخدام السودانيين في المكسيك ـ طبعًا ـ أحد العناصر في المُشكلة الكبرى التي تهدف إلى إجلاء القوات الأجنبية وخاصة الفرنسية من هذا البلد، وكانت حجّة الولايات المتحدة في اتهامها الرسمي أنها علمت من مصادرها عن أسر أفراد القوة السودانية بالجملة بنفس طريقة جمع العبيد، وأنه قد تم بيعهم للخدمة في دولة لا يعرفونها ومن البديهي أن الحكومة الأمريكية تعارض الرق مهما كان مظهره في دولة مجاورة".

يا الله.. إذن هذا هو السبب في حزن كوكو.. كوكو سودان كباشي، فها هي خيوط المأساة تكتمل، وها هي الحقائق تتوضح شيئًا فشيئًا أمامي، فالأورطة المصرية السودانية صاحبة البطولة كانت من العبيد، وكوكو سودان اصطيد صيدًا، وانتزع انتزاعًا من وطنه في جبال النوبة، أجمل قطعة على وجه البسيطة، وأكثرها عذرية وبراءة، كي يقذف به في لهيب حرب لا ناقة له فيها ولا جمل كما يقال.

كنت قد تعرفت على كوكو سودان كباشي، قبل أيام قليلة من قراءتي لكتاب تشامبرز رايت، وتأمل سطوره الفاضحة، وذلك من خلال أوراق الشيخ عثمان حُفني المجهولة والذي أفرد فيها صفحات مطولة للحديث عن كوكو وعن بلاده، نسجت منها عندما نمت بعد قراءتها حلمًا جميلاً لهذا العالم الغريب، تخالطت فيه كلمات الشيخ عثمان مع مشاهد أرشيفية ترسبت في عقلي الباطن من أفلام طرزان القديمة ورحلات إلى قلب قارة الماس والذهب

وينابيع ماء ما هي إلا دموع سماوية لا تكف عن الانهمار، كان كوكو يبدو لي خلال الحلم، شابًا يافعًا يخطو وهو شبه عار، بقده الخيزراني الرشيق فوق حبل طويل وممتد معلق في الأعالي، سمعت من يسميه في الحلم بخط الاستواء وكان وراءه رجال بيض يعدون لاصطياده، وكان كوكو كلما خطا خطوة محاذرًا فوق الحبل المغطى بكامله بعصافير ملونة بديعة، كانت العصافير تفسح مكانًا لخطواته، بينما أسود ونمور وظباء وزرافات وحيوانات وطيور أخرى غريبة ترأر وتصيح وتغرد تشجيعًا له، وكأنه لاعب إكروبات في سيرك عجيب، وعندما نجح رجل أبيض في اصطياده أخيرًا، صرخ قطيع كامل من الفيلة صراخًا حادًا عنيفًا، وهنا أفقت مذعورة وأنا أستشعر جفافًا في حلقي وغصة تكاد أن تحجز الهواء عن رئتي، فجريت إلى المطبخ لأتجرع جرعة من ماء بارد، تطفئ ظمئي وتعيد الطمأنينة إلى روحي.

عدت إلى السرير مرة أخرى، وبقيت فترة مفتوحة العينين أبحلق في السقف، بينما أحاول في يقظتي استرجاع مشاهد الحلم مرة أخرى، كان قلقًا هائلاً يساورني ورغبة لا تقاوم في أن أذهب إلى حيث كان كوكو سودان ذات يوم، بين الفيلة والحيوانات والطيور، نظرت في الساعة الملتفة حول معصمي، كانت قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، نهضت من السرير وأضأت المصباح الموضوع على مكتبي بالغرفة ورحت أقرأ مرة أخرى ما سطره الشيخ عثمان عن كوكو سودان وأسترجع ما قاله وأصله

بما كتبه د. تشامبرز رايت عن حملة المكسيك.

كانت صفحات كثيرة قد طارت بفعل سحر جدة رودلفو، ولكن الصفحة ٤٧ ويليها بعض الصفحات، كانت مستقرة الآن أمام عيني حيث كتب عثمان خُفني:

"وكنت مذ تخالطت مع أفراد الأورطة، وبدأت أؤمهم للصلاة كما كان مقررًا لي كشيخ مرافق، قد لاحظت شابًا يافعًا يبقى طوال الوقت حزينا، ساهم الطرف، يطيل النظر إلى البحر والماء، وكان يبدو على الرغم من جسده الفارع وقوامه السمهري، كالمرضى المعلولين بعلة غير ظاهرة، ثم إنني بدأت التقرب منه والتودد إليه، وعرفت أن اسمه كوكو سودان كباشي، ولم يكن يعرف من العربية إلا قليلاً، على العكس من زميله النفر بخيت بدروم الذي ترقى بعد واقعة القطار إلى رتبة أونباشي، وبخيت مثل كوكو ومعظم جنود الأورطة، كان قد جُلِبَ من منطقة قرب جنوب غرب السودان تسمى جبال النوبة، لكنه تعلم العربية لأنه كان في الأورطة منذ عدة سنوات، وقبل ارتحالنا إلى مكسيكيا، وكان ينقل الكلام بيني وبين كوكو بلغة الطرفين عندما يتعذر التفاهم بيننا في أوقات كثيرة ومنه عرفت أن كوكو بلغة جبال النوبة تعني الأخ الأكبر، كما أن كاكا تعني الأم، وفافا هي الأب، وكوكو كان أكبر إخوته فعلاً، وقد صيد عبدًا مغصوبًا منذ عام واحد قبل ارتحاله إلى مكسيكيا، وتم ضمه للأورطة السودانية وكان عمره وقتذاك لا يزيد على عشرين سنة، ولقد كان حزينًا لابتعاده عن كاكا وفافا وبقية عشيرته وإخوانه، ورغم حزنه

البادي إلا أنه كان نشيطًا مطيعًا منفذًا لكل ما يطلب منه من أوامر ومهمـات، وكانـت له هيئة حسنة وأسنان قوية بيضاء ما رأيت أجمل منها، وكان صدره عريضًا لا يقل عن ثلاثة أشبار بأية حال من الأحوال، وربما أكثر، وكان كوكو عندما تأخذه دوامات الحزن والألـم خـلال وحشة الليل ويسرح ببصره بعيدًا وهو على سطح الـنقالة، يشـرع فـي صـفير حاد ممتد كصفير طير من طيور الغابات، ويظل على تلك الحال وقتًا وكأنه مذهول أو أصابه مس من شيطان رجيم، ثم عقب ذلك يشرع في غناء حزين مؤثر بلغة أهـل جلدتـه، وكنت أقوم إليه فأربت على كتفه مواسيًا مؤاسيًا، وشـيئًا فشـيئًا علّمته فروض الصلاة، لكني أدركت أنه ليس من المتدينيـن ديانـة حسنة بين أفراد الأورطة، وعندما دخلت النقالة لاسين المحيط الكبير والذي كان يطلق عليه قديمًا بحر الظلمات، ظـل كوكـو خائفـا مذعورًا زائغ النظرات وكانت عربيته تثير ضحكي أحيانًا فهو يقول تزعة بدلاً من تسعة، وفي إحدى المرات أخذت أحادثه وكان معنا بخيت بدروم، ففهمت منه أن لكوكو أختًا تـوأم كان يحبها كثيرًا، وكان لا يفارقها ولا تفارقه، لكنها سرقت هي الأخرى وبيعت بأرض لا يعرف طريقًا لها.

ثـم أنـه كـان لكوكو رفيق صنو اسمه نينانده ضمن أفراد الأورطة على النقالة لاسين، وهو مثله من قبيلة تسمى الشير، وقد أخبرنـي بخيـت أن الشير في مجملهم شعب وسيم الطلعة، طويل القامة، بهم لطف وبشاشة وكرم، وهم أهل رقص وغناء، وتجتمع نسـاؤهم مع رجالهم وأطفالهم لهذه الغاية في حفلات تحت ظلال

الأشجار، ويعزف أولادهم المزمار ويرقص الجميع متمايلين ذات الشمال وذات اليمين مع هز الأرداف والصدور، لذلك فإن كوكو ونينانده كانا ينتهزان كل فرصة للرقص، وكان سوار الذهب ريس ومعلم المطبخ يشاركهم في ذلك حيناً وهو يضحك، وكنت أعجب منه وهو يصفهم بالعبيد وهو أسود مثلهم، وإن كان لونه أفتح منهم بعض الشيء، وفي ملامحه نعومة، فلما سألته قال لي إنه من أهل الشمال الذين تخالطت دماؤهم مع العرب، وأن قبائله تعتبر أهل الجنوب أدنى وأقل شأناً فضربت كفاً بكف وأنا أتعجب من ذلك.

وقد لاحظت أن كوكو يحب الإمساك بمسبحتي كثيراً وهي مسبحة صنعت أحجارها الصغيرة من عنبر الحوت الجليل، وكان قد قدمها لي ابن عمتي الحاج خليل عند خروجي وارتحالي من الحُفن كتذكرة تدوم، ودليل محبة لا تبددها الأيام، وذات مرة أخذها مني كوكو ووضعها في عنقه كقلادة وراح يرقص بها، وعند الليل فاجأني إذ رغب في مقايضتي بها، وأظهر لي جلد نمر كامل لا عيب فيه، كان قد جلبه معه ضمن حاجياته وخبأه واقترح أن يكون سجادة لصلاتي وركوعي.

وقد عرفت من كوكو أثناء رحلتنا أن بلاده من أجل بلاد الأرض قاطبة وهم يزرعون السمسم والتبغ واللوبيا إلى جانب البطيخ والقرع، وأن أشجارهم شامخة للغاية وتسكنها أنواع شتى من الأطيار مثل غاباتهم المعمورة بكل أنواع الوحوش والدبابات.

"وقد تعذب العديد من أفراد الأورطة، عذابات من نوع آخر لا حصر لها، غير مفارقة الأوطان والنأي عن الأهل والخلان، فالطعام كان في أغلب الأحيان رديئًا وطعمه غير مستحب، واليخنة التي كانت تقدم لنا كل يوم، لم تكن بها لذاذة وعلى المرء أن يزدردها ازدراد البهيمة لعلفها، ولولا بعض الفواكه التي كانت تقدم لنا أو يبتاعها المرء من السوق، لكان مات ونفق جوعًا، نأهيك عن الماء وقلّته وعدم استساغة طعمه، وكانت وخامة الأراضي الحارة التي نعسكر بها وفساد مناخها، من أكبر أسباب المضايقة للجميع، وعلى ذلك ورغم متانة بنية جنود الأورطة وكمال أجسامهم، وقوة تحملهم، لم يكن يوجد من كل بلوك من بلوكات الأورطة أقل من ثلاثين أو أربعين مريضًا دومًا، النسبة الأكبر منهم تكون بالمستشفيات والبقيّة في الثكنات، حيث يذهب البعض إلى المستشفى لحاجتهم الماسة لعلاج سريع أو ليبقون تحت الملاحظة، ويحصلون على العلاج، وكانت معظم الإصابات في هيئة إسهالات وحميات، ولدغات حشرات سامة أو حيات، أو آفات أخرى عجيبة لم أر مثلها من قبل قط".

"وفي ٢١ يونيه سنة ١٨٦٣ إفرنجي، أقيم في فيراكروز قداس في أكبر كنائسها، حضره القائد العام الفرنسي، وكبارات المدينة وأعيانها ومثلت فيه جميع السلطات العسكرية وعهد إلى الأورطة السودانية المصرية مهمة القيام بالتشريفات، وقد حضرت إلى هذه الكنيسة الكبيرة ضمن من حضروا، فوجدت أنها شاهقة البنيان، مليئة بالزخارف العديدة المصنوعة من الجص، كما مُثل

بداخلها تماثيل من الرخام، لأنبياء ورسل المسيحية، وكانت جدران الكنيسة من الداخل ملونة الزخارف بماء الذهب، وأوانيها من الفضة الخالصة، أما المسيح عليه السلام، فقد صوروه وهو على الصليب، في هيئة ضخمة صبت من الذهب الخالص، كما كانت هناك تصاوير على الجدران رسمت لأمه السيدة مريم، وكذلك لقصص الأنبياء، والسيد بين حوارييه، ثم جاء القسس والكهنة في ملابس طويلة حمراء كالعباءات وهم يضعون على رؤوسهم قبّعات حمراء أيضًا وظلوا زمنًا طويلاً يرتلون ويقومون بأدعية قيل لي إنها باللاطينية وأن عامة الناس هنا لا يفهمونها، وكانت النساء تجلس في موضع مخصوص، غير ملازمات للرجال كما هي العادة في أفراحهم وتجمعاتهم وقد لاحظت أنهن يضعن على رؤوسهن طرحًا من النسيج الرقيق المشغول بأنساق بديعة لافتة، والحق أن النساء هنا على الأغلب هن على درجة من الحسن وتتراوح ألوانهن بين البياض الشاهق، والسمار الداكن، ولهن عيون مليحة آسرة النظرات".

وقد تعجبت من كل تلك الأبهة، وكل ذلك الإسراف في بيت للعبادة، فلعل الخالق ما يريد من خلقه إلا الطاعة والعمل بما أمر به، وهو غني عن الذهب والفضة، وكل تلك الثياب الموشاة القشيب الذي لا معنى أو ضرورة له، وقد قارنت ذلك بزي القساوسة والرهبان في بر مصر، الذين يميلون إلى التقشف ولا يخلعون السواد، وهم فقراء إلى الله في كل مسلك من مسلكهم، ثم أن الفرقة بعد أن انتهى القداس، تم استعراضها في أكبر ميادين

المدينة، وكانت كعادتها غاية في الانضباط وحسن الملبس، وخصوصًا بعد أن مُيزت بشارات صفراء توضع على الأذرع بناء على تعليمات المارشال فوريه، وكان قد كافأها قبل ذلك في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٦٣، بأن تؤلف منها كتيبة جنود برنجي نفر، فأُلفت من الأورطة كتيبة بلغ عددها ربع عدد الأورطة، كما أمر فوريه فمنح كل فرد من أفرادها ٦٥ سنتيمًا يوميًا، وأن يميز من فيها كذلك بتلك الشارات الصفراء، وكان فوريه طالما أشاد بالأورطة المصرية وبطولاتها وقد علمت من الصاغ ألماس أفندي أن هذا القائد قد أرسل إلى القائد العام للجيوش الفرنسية في مكسيكيا برقية أشاد فيها ببسالة الجنود المصريين السودانيين وقال له إنهم لم يبالوا بالنيران التي كانت تنصب عليهم من كل جانب أثناء القتال، وقد نجحوا في الانتصار على المكسيكيين وردوهم على أعقابهم على رغم أن هؤلاء الآخرين كانوا يزيدون عليهم في العدد تسع مرات".

وقد قارنت ذلك الاحتفال الكبير الذي شهدته في الكنيسة والذي أقيم بسبب بعض المناسبات الوطنية، وقد قلب البلدة رأسًا على عقب، ببعض الاحتفالات التي شهدت جانبًا منها في مصر المحروسة كعيد وفاء النيل وتذكار يوم الجلوس السنوي والمولد النبوي، فإن القاهرة كانت تصير قائمة قاعدة، تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفاخرة، والرايات والأشاير والطبول والزمور، وجماعات أصحاب الرتب والنياشين بملابسهم الذهبية الساطعة ونياشينهم المتلألئة يسيرون زرافات ووحدانا، بينما

تصدح الموسيقى بأنغامها الشجية في كل حي من الأحياء، وتدوي المدافـــع دويًـــا متعاقبًا وتجري الاستعراضات الجميلة، وفي عيد الجلوس كان عشرة آلاف درويش يمرون بأشايرهم وراياتهم أمام شـــرفة القصـــر بعابدين بضجة وصخب غاية في العجب، وكانت الصـــواريخ والألعاب النارية تشعل في الليل على أبدع الأشكال وأتم الأنواع.

في مساء اليوم التالي لقراءتي أوراق عثمان حفني عن كوكو سودان، عدت إلى البيت بعد يوم حافل.. ذهبت إلى المحكمة في الصباح مع عدد من زملائي للترافع في قضية تعذيب شاب بأحد أقسام البوليس كان متهمًا في قضية سرقة بالإكراه وثبت أنه مات بسبب التعذيب، ثم شاركت في ندوة تتناول حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم، وما إن ولجت من باب الشقة حتى صاحت عمتي من المطبخ مستنكرة:

ــ يعني لازم تتسببي في إحراجي مع الناس؟. سألتك عن موضوع سواق أخت سميحة فوزي وأنتِ ضاربة طناش ولا على بالك، يعني يحصل شيء لو رفعتِ سماعة التليفون وسألتِ عنها وعن أحوالها واستفسرتِ منها عن الموضوع؟

ــ طيب. طيب. عاوزة آكل الأول، لأني ميتة من الجوع.

ــ أسخن لك بامية ومكرونة، عاملة بامية بشاير تجنن.

ــ لا. عاوزه شاي وجبنة رومي.

بعد العشاء كلمت أخت سميحة فوزي، قالت إن السوّاق السوداني الشغال معها لاجئ سياسي عند الأمم المتحدة، وأن الأمم المتحدة نازلة ضغط عليه حتى يهاجر لأمريكا وهو رافض.

دهشت للفكرة وتساءلت:

ـ يا سلام. هل الأمم المتحدة عاوزة تهجره لأمريكا فعلاً؟

ـ آه.

ـ غريبة ويا ترى لسبب معين.

ـ ولا أعرف وحياتك. أصل المشكلة أن الأمم المتحدة أعطته جواز سفر وأوراق شخصية وهو من غيرها يبقى وضعه غير قانوني في مصر. وبيني وبينك هو ناقع لي جدًا، ويدي ورجلي في الرواح والمجيء، أصل السواقة في مصر صعبة ومخيفة، ولا ضابط أو رابط لها. تصوري عشت عشرين سنة في الخليج وكنت أسوق كل يوم بالساعات، وأطير بالعربية في كل مكان. لكن هنا في مصر مستحيل أن أفكر حتى في مجرد تدوير العربية مرة واحدة. لو عملتها يركبني مائة عفريت.

بعد ذلك بعدة أيام جاءني بالمكتب شاب أسمر خجول، وقدم نفسه لي: علاء السناري من طرف مدام سميحة فوزي، تذكرت الموضوع على الفور وطلبت منه الجلوس وطلبت له عصير ليمون من نفيسة فراشة المكتب، قال علاء وصدق كبير يطل من عينيه ويملأ نبراته أنه سجن في السودان عدة سنوات، ثم هرب بعد ذلك إلى مصر عن طريق العلاقات القبلية وأنه كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي السوداني، ثم إنه طلب اللجوء السياسي من الأمم المتحدة، وبات يحصل على وثيقة إثبات شخصية من هذه المنظمة الدولية وكذلك مرتب لا يكفيه لذلك فهو يعمل سائقًا خصوصيًا لبعض الوقت و..

ــ طيب وما المطلوب مني يا أخ علاء؟

ــ لا أعــرف مــاذا أفعل، لكني لا أريد أن أتغرب بعيدًا عن أهلــي وناسي. أنا في مصر قريب من أمي وإخوتي، وهم يأتون مــن السودان بين فترة وأخرى لزيارتي، والزول يعيش على أمل أن تنتهي المشاكل السياسية ويعود ذات يوم إلى بلده وأهله.

قلت وأنا أستمع إلى قصته بنبرات لا تخلو من تعجب:

ــ لكــن يــا عــلاء، نــاس ياما، أمنيتها الهجرة إلى أمريكا والعــيش فــيها، ملاييــن الناس حلمهم الحياة في الجنة الأمريكية بسبب الرفاهية والغنى والثروة.

نظــر علاء إليّ نظرة طويلة متشككة، ثم حاد عني بنظراته، وراح يثبتها على إعلان ضخم لنوع من مكيفات الهواء الأمريكية، يظهر على حائط البناية المقابلة لنا من شباك الغرفة، قال:

ــ لا. أنــا لا أريــد الذهاب إلى أمريكا وإعادة توطيني كما يقولــون، واحد زول زميل لي، لاجئ سياسي من الجنوب، وهو تحــت حماية الأمم المتحدة أيضًا، تم ترحيله وتوطينه في أمريكا، لكنهم بعد فترة قصيرة أرسلوه ليحارب في حرب الخليج والمسكين قتل عراقيين ومات، تصوري يا أستاذة؟

هتفت رغمًا عني:

ــ آه. عملوه كوكو سودان كباشي يعني!

ــ شنو؟

نطق بالسودانية وهو ينظر إليّ مندهشًا وقد أذهله الاسم.

قلت:

ـ آسفة. كنت أكلم نفسي.

ثـــم إنـــه انصرف، بعد أن وعدته صادقة بالسعي لإيجاد حل لمشكلته الغريبة بطريقة أو بأخرى.

نزلــت بعد انتهاء مقابلتي مع علاء السناري، وانصرافي من العمل بالمكتب إلى شوارع وسط البلد لشراء هدية مناسبة لزميلتي وصـــديقتي نهال الحسيني والتي تعمل معي في ذات المكتب. لقد زاملتنـــي نهان طوال سنوات خمس منذ بداية اشتغالي بالمحاماة، وأخذت علاقتي بها تتوطد شيئًا فشيئًا، واكتشفت أنها نموذج خاص جــدًا مــن النساء مقارنة بمن صادقتهن في حياتي، فهي تزوجت ذات يــوم مــن زميل لها بالجامعة، وأنجبت منه ولدين بعد قصة حــب طويلــة مؤثــرة، إذ كان زوجها مسيحيًا وأسلم، لكن أهله رفضــوا زواجــه منها، مثلما رفض أهلها زواجها منه لاختلاف الديانة، وعلى الرغم من أنه أسلم وكان سعيدًا معها، إلا أنه وعلى مــا يــبدو لم يحتمل قطيعة أهله له بعد إسلامه فأدمن المخدرات وانــتهى به الأمر إلى أن يموت في مصحّة لعلاج الإدمان وهو لم يــتجاوز الخامســة والثلاثيــن مــن العمــر، إضافة إلى الولدين الصــغيرين، فقد ترك الزوج المسكين لنهال تركة لا بأس بها من الديــون ولوعات هائلة في القلب وعجزاً دائماً عن التعامل مع أي رجل آخر يحل محله، ناهيك عن قطيعة مستديمة من أهله وأهلها.

عمومًــا، اشــتريت قــرطًا فضــيًا علــى هيئة مفتاح الحياة

الفرعوني يليق بوجهها الجميل وكان سعره مناسبًا لدخلي المتواضع، خمسين جنيهًا فقط لا غير.

قلت وأنا أقدمه لها:

ــ فكري في الحياة وحاولي أن تعيشيها.

عندما عدت إلى البيت بعد أن دعوت نهال للجلوس قليلاً في جروبي واحتساء مشروب احتفالاً بعيد ميلادها الحادي والأربعين، شرعت في استكمال قراءة أوراق عثمان حُفني بعد أن قيلت قليلاً، وجدت فضة أخرى تنتظرني، كانت في صفحة ٥٨ "وفي هذه البلدة تفرجت على إخراج الفضة، ورأيت كيف يطحنون الحجارة مثل التراب، ويجعلونها في الماء كالطين، وبعد ذلك يمزجون فيه الزيبق وطول النهار يحركونه مقدار عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا والزيبق يجمع الفضة ويلتصق بها، ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه في حوض مجلد بجلود البقر والماء يأخذ التراب ويوديه والفضة ترسخ".

سرحت ببصري قليلاً، وتداعت إلى مخيلتي صورة دولاب الفضية بغرفة السفرة في بيت عمتي زمان.. أكواب وفناجين زجاجية كثيرة داخل أرديتها الفضية المنقوشة والمحفورة بزخارف وتوريقات نباتية جميلة، ما كانت تخرج من أماكنها على أرفف الدولاب الخشبي الرائع المصنوع بدقة وإتقان، إلا في مناسبات عزيزة، ذات طابع استعراضي، عندما كان يزور عمتي بعض "الناس المهمين" كما تقول، أو بعض الرجال الذين كانت الفضة وأوانيها الساحرة، وسيلة من وسائل عمتي لإغوائهم على ما أظن.

بدأ عقلي تداعياته تحت عنوان فضة فرحت أغني بصوت خافت أغنية طالما رددتها وأنا صغيرة:

بس بس نو يا بس بس نو
دلوعة وعمال تحلو
قطط الناس جلاجلها حديد
وانتَ فـ لبس الفضة وحيد
يا أبو عين سودا يا حارس الأودة
يا بس بس نو

وأغنية أخرى طالما كانت تغنيها لي عمتي وأنا صغيرة:

ساعدني واساعدك
واكسّر سواعدك
سواعدك.. لولي.. لولي..
كما الشعر المحلولي
حليته حلة.. حلة..
كما شمروخ الفضة.

أما آخر التداعيات، فكانت من كتاب قرأته دونما اهتمام، كان أهداني إياه ذات مرة صديق يعمل في دار نشر خاصة، لاح في الأفق وقتها كمشروع علاقة عاطفية سرعان ما خبت، أو انتهت قبل أن تبدأ تقريبًا.

رحت أقلب في مكتبتي حتى عثرت على الكتاب، كان عن أمريكا اللاتينية وشعوبها، أخذت أتصفحه مستعيدة ما قرأته من قبل.

"كـــان نظـــام الميتا آلة تسحق الهنود، وكان استخدام الزئبق لاســـنخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائي يسمم بنفس درجة الغازات السـامة فـــي أحشاء الأرض أو أكثر، كان يسقط الشعر والأسنان ويبعـــث ارتجافـــات لا يمكـــن السيطرة عليها، وكان من يسممهم الزئـــبق يتمددون في الشوارع طالبين الإحسان، كانت ستة آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل في الليل على منحدرات التل الغني وعلى ضـــوئها يجري تشغيل الفضة بالاستفادة بالريح التي يبعثها (سان أوغســطين المجـــيد) من السماء وبسبب دخان الأفران لم يعد ثمة زرع ولا بذار في مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوس ولم تكن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال".

أما عثمان حفني، فقد كتب عن هنود الفضة ص ٦٣ مايلي:

"وقـــبل أن تملـــك الســـبنيولية هذه البلاد، ما كان أحد يعرف بالإله الحقيقي، وكان البعض يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وما كـــان لهـــم أحـــرف، ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة، لكن لما يـــريدون أن يقدمـــوا عـــرض حـــال إلى ملكهم، كانوا يصورون تصاوير في منديل على حسب شكاواهم، وكان في زمان فتح هذه الـــبلاد ملكـــان إخـــوان، الواحـــد يسمى وداوليا، والآخر يسمى وســـكارانيكا، وكـــان بينهما الحرب، وكانت آلة سلاحهم وعدتهم القـــوس والســـهام ورمـــاح ومقاليع لقذف الحجارة، وما كان لهم مـــواش، أعنـــي مثل أفراس وبغال وحمير ولا ثيران ولا بقر ولا غنم ولا دجاج سوى جنس حيوان شبه الجمل بقدر الحمار وحدبته في صدره يحملون عليه ويأكلون لحمه، لكنه لا يسافر بعيدًا، وكل

يـــوم ما لا يزيد عن أربعة فراسخ لا غير، فلما يتعب ينام ويزبد ويـــتفل على أصحابه وهؤلاء الهنود ما كان يموت أحد منهم، إلا وكـــانوا يصـــنعون له قبرًا عاليًا علو ذراعين وطول ثلاثة أذرع، وكانوا يضعون في قبره آلة صنعته مع شربة من خمر الذرة.

بـدأت انتـبه إلى متغيرات أخذت تعتريني منذ بداية قراءتي لأوراق عـثمان حُفني الغريبة، في البداية أبدت عمتي ملاحظة أو اثنتيـن لـم أعـرهما اهتمامًا واعتبرتهما ضمن سياق ملاحظتها الدائمـة لـي، فمـا المشكلة في أن تقول "صار لك أسبوع وأنت خارجة داخلة في البنطلون البُني إياه والبلوزة البيج المكلحة، كأنك شـغالة في معسكر جيش"، أو أن تقول "حطي لك حبة بودرة في خدودك وأنت لونك صار أصفر كالكركم وكأنك مريضة".

لكن بمرور الوقت، لاحظت أنني بت متوترة معظم الوقت، لا مبالـية بالأشياء حولي، ولا أبذل الجهد الذي كنت أبذله عادة في عملـي بالمحاماة، أو أتحمس له كثيرًا مثلما كنت دومًا، ولاحظت أن شهيتي أخذت تضعف لتناول الطعام، مع نوبات اكتئاب تستمر عـدة ساعات خلال اليوم، أعود بعدها لمزاجي المعتاد، ولاحظت أن ذلـك يحـدث عـادة بعد قراءة الأوراق، وقد استشعرت أنها تجرنـي إلـى الأمور. أعترف أنها لم تكن محط اهتمامي من قبل ومنها مسألة الهنود الحمر.

هـل السبب في كل ذلك هو أنني لم أتوصل إلى خيط واضح يدلني على شخصية عثمان حُفني ومن يكون، اللهم إلا اسم القرية

التي جاء منها؟

فكرت في ضرورة تسليم هذه الأوراق لشخص ما، شخص قد يهمه أمرها، وأستريح أنا منها، باحث أو مؤرخ متخصص، ولكن ماذا عن رودلفو؟، لقد وعدته بأن أبذل جهدًا للبحث عن عائلته الضائعة والتي لا يستطيع إليها سبيلاً.. نعم لقد وعدته أن أبذل جهدي لفك طلاسم الأوراق والوصول إلى أصل وفصل عثمانو.. ولكن لماذا، لماذا هذا الوعد؟، ولماذا كل هذا الحماس من ناحيتي؟

لقد دفعني التفكير في رودلفو إلى التفكير في نفسي أيضًا، إن الفضول والرغبة في معرفة سر عثمان حُفني وحكايته لا يمكن أن يكونا الدافع الحقيقي وراء الاهتمام بهذه الأوراق.. هل رودلفو نفسه هو من أهتم به؟ لا أخفي أنني أعجبت بشكله وانجذبت إليه نوعًا ما، ولكن هل يمكن أن يكون اهتمامي بحكايته سببه أنني أبحث فيه عن ضالتي المنشودة؟. ولكن ما هي ضالتي المنشودة؟ أنا لا أعرف، لا أعرف على وجه اليقين ماذا أريد من هذا الرجل الذي أدخل في علاقة معه، إن كل ما أدركه حقًا هو أنني أريد رجلاً يملأ الفراغ الهائل الذي تركه أبي بعد وفاته، رجل آخر يمنحني طمأنينة مثلما كان يفعل أبي، فأنا أشعر أنني بلا معنىً، وأنني بالونة ضخمة ملونة تسير على قدمين وستنفجر عند أول شكة أو ملامسة لها، ولكن هل رودلفو هو الرجل الذي سوف يملأ هذا الفراغ، ويعوضني عن كل الرجال الآخرين الذين حاولت ودون جدوى أن أجد فيهم الملامح الجميلة لذلك الطاغية الناجح دومًا في امتلاكي منذ طفولتي وطوال حياتي وحتى بعد مماته،

وأعطى لي صورة أبدية وتعريفًا نهائيًا للرجولة عندي؟. عمومًا لا أظـن أن رودلفـو لديـه ما يحل محل أبي، وأنا لست واقعة في غـرامه، ولكنـي متعاطفة معه وهناك أمر غامض يقربني إليه.. ربما.

لقد عدت للتفكير مرة أخرى في مدى جدية رودلفو للوصول إلـى أصـول عائلته في مصر.. طيب إذا كان هو جاداً إلى هذا الحـد، فلمـاذا سكت كل هذه السنين ولماذا انتظر سنوات قبل أن يحمـل أوراقه ويقدمها إلى أحد؟ عمومًا داخلني شعور بأنني غبية ولا أخلو من حماقة، فثمة أسئلة كان يجب أن تتبادر إلى ذهني منذ أن رأيـته وتحادثـنا في الطائرة، أفليس من المعقول أن رودلفو يعمـل لحسـاب جهة ما، وموضوع العائلة المفقود أثرها إنما هو سبب وعلة وغطاء، ومبرر لذلك؟!

تدافعـت إلى رأسي صور من أفلام جاسوسية شتى، سبق أن شـاهدتها فـي السينما والتليفزيون.. شعرت بالخوف قليلاً، فربما وقعت في فخ خطير، أو بت أداة يستخدمها شخص غامض ضالع فـي مؤامرة كبرى لا أدري عنها شيئًا. رحت أحك رأسي بأناملي مسـتثيرة خلاياهـا الدهنـية مما ترك لمعانًا على أظافري، كنت أجلس على سريري متربعة، منفوشة الشعر، أفكر بعصبية، وقبل أن أرد علـى عمتي الداخلة من البلكونة بالغسيل الناشف الملموم، والتي صاحت بمجرد أن رأتني: "مالك ناكشة شعرك وعاملة أمنا الغولة"، رن جرس التليفون ليجيئني صوت رودلفو:

ـ خالدة، أنا رودلفو.. كيف أحوالك؟

ـ بخير.. أهلاً.. وأنت؟

ـ جـيد.. جيد.. أريد أن أشكرك على كل شيء وعلى جولة القاهرة الجميلة، ولكن هل قرأت الأوراق؟

ـ بـدأت أقرأها، وهي أوراق جدك عثمان حفني يا رودلفو، يبدو أنها مذكرات أو شيء من هذا القبيل.. وبلده اسمها الحُفن و..

ـ هفن.

ـ الحُفـن ـ شـددت على الحروف ـ وهي تقع في جنوب مصر وهي بلدة قديمة مشهورة بأن مارية القبطية كانت منها.

ـ ماري. آه.

ـ لا، ليسـت السـيدة مريم العذراء.. بل مارية زوجة النبي محمد.

ـ وهل عرفت شيئًا آخر؟

ـ حـتى الآن، أنـا في الحقيقة لم أتوصل لمعلومات مفيدة، ولكـن علـيك الانتظار والصبر، حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلها.

ـ خالدة.. اسمعي، تعرفت على صديق مصري هنا، وحكيت لـه حكايـة جدي والأوراق، وهو يقول إنه يستطيع الوصول إلى عائلة جدي بطريقة سريعة.

ـ أية طريقة؟! تساءلت بدهشة.

ـ يقـول إنه يعرف ساحرًا ممتازًا في بلدته بمصر وهو لابد أن يوصلني إلى عائلتي، ولكنه يحتاج إلى أي شيء يخص جدي، وأنـا فكـرت أن تعطيه بعض الأوراق التي عندك، وسأرسل لك

نقودًا في البنك لهذا السبب، لأن من سيقوم بهذه المهمة والدته في مصر، فمن فضلك أعطيني رقم حسابك في البنك و..

ــ لــم أتمــالك نفسي، فقهقهت بصوت عالٍ في التليفون مما جعله يرتبك على ما أظن لأنه تساءل:

ــ لماذا تضحكين؟. هل هناك خطأ ما؟!

ــ آسفة، لكن حكاية الساحر أضحكتني، لم أتصور أنك تفكر في السحرة!

ــ ولــم لا؟. الســحر علم، وهناك ظواهر ما وراء الطبيعة ترتبط به، لكن هذا موضوع يطول النقاش فيه، سأعطيكِ صديقي المصري وهو سيحدثك في هذا الموضوع.

تغير الصوت، وكذلك تغيرت الحروف والكلمات.

ــ أهــلاً يــا أبلــة.. معــك أخــوك عبد السميع الطيب من البراجــيل، والله يا أبلة لو عندك قلم أعطيكِ تليفون الحاجة الوالدة وســعادتك تتصلي بها في البلد، وهي توصلك للشيخ أبو المعالي، قولي لها الشيخ أبو المعالي وهي تعرف على طول وهو مكشوف عنه الحجاب ومجّرب والحمد لله.

أخذني الفضول العارم فسألته:

ــ أنت مقيم في ألمانيا يا عبد السميع؟

ــ أي نعم يا أبلة من حوالي ثماني سنين مع ابن عمتي وناس كثير من مصر وشغالين في بيع وتوزيع الجرايد.

أخــذت مــنه رقــم تليفون الحاجة الوالدة، ودونته في مفكرة أضعها عادة بجانب التليفون احتياطيًا لمثل هذه المناسبات، ثم قلت

له:

ـ طيب.. هات رودلفو.

وعندما أعادني إلى صوت رودلفو مرة أخرى، قلت له بحزم:

ـ أسمع يا رودلفو.. لا تعطي أي إنسان نقودًا ولا تتصرف بأي شكل من الأشكال حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلها من فضلك وأقول لك عنها، ثم أنني ودعته ووضعت سماعة التليفون.

كثير من الناس الذين أعرفهم يعتقدون في السحر، وفي أمور مشابهة من هذا النوع، أناس جهلة لم يذهبوا إلى مدارس قط، وأناس متعلمون تعليمًا عاديًا كعمتي (حاصلة على ثانوية عامة قديمة)، وحتى أناس متعلمون تعليمًا عاليًا راقيًا، عمتي على سبيل المثال تذهب إلى عرافين يقرأون الكف ويفتحون الكوتشينة ويقرأون الفنجان وهي تعتقد في السحر بشدة وطالما ضبطتها وهي تأخذ إيشاربًا من إيشارباتي، أو قميصًا من قمصاني الداخلية، باعتبارهما من آثاري، مما يساعد السحرة على فك أعمال معمولة لي حالت دون ارتباطي بشخص ما وزواجي حتى الآن.

لي زملاء مرموقون في مكتب المحاماة، طالما وجدتهم يتناقشون في هذه الموضوعات.. نهال الحسيني نفسها، بكل عقلانيتها، وتفكيرها المنطقي تقرأ باب حظك اليوم في الجريدة، وبين الحين والحين تطلب فنجانًا من القهوة تشربه ثم تدعو نفيسة مفتاح ساعية المكتب كي تقرأه لها، الوحيد الذي لم أسمعه مرة

يتـــناقش في مثل هذه الأمور، هو أبي، بل كثيرًا ما سمعته يسخر مـِـن عمتـــي، عـــندما كانت تحكي له عن المفعول الناجع لعراف زارتـــه أو عجـــوز فتحت لها الكوتشينة وقرأت طالعها، وها هو رودلفو الذي ظننت أنه مثقف ومتعلم كما يجب ويعيش منذ سنوات في ألمانيا، ناهيك عن همومه السياسية، يلجأ إلى السحرة ليساعدوه فـــي الوصول إلى أصل جده، إذن المسألة ليست علمًا وجهلاً، أو غــربًا وشرقًا، فثمة أمر أعمق من هذا، ربما الناس بداخلها تعتقد أن واحـــدًا + واحد لا تساوي اثنين بالضرورة، فقد تكون ثلاثة أو أربعـــة، لكـــنهم لا يصرّحون بذلك، أو هم يرغبون في إثبات أن ١ + ١ لا تساوي ٢، وبطرقٍ أخرى غير رياضية، ولكن لماذا؟، هــل لأنهـــم غـــير مقتنعين بالعلم؟ لا أدري! هل لأنهم يشعرون بالـــنقص! أي أنهـــم ناقصـــون؟. ربمـــا. ولكن لماذا هذا الشعور بالنقص؟!. لا أدري!

هــل رودلفو لا يؤمن بأن ١ + ١ = ٢، أم أن رودلفو يشعر بأنـــه ناقص؟ هل هو ناقص لأنه لا يؤمن بالعلم أم هو ناقص لأنه لا يعرف شيئًا عن جده عثمان حفني؟.

مـــرة أخـــرى وجدتني أتساءل أسئلة أخرى من نوع: ما هي الحـــدود الفاصلة بين العلم والخرافة؟، أو بين الحقيقة والخيال، أو بين التاريخ والتأريخ، لقد كتب عثمان حفني في صفحة ٧٦:

"وكان بذلك الجبل نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فلما يمر عليه رجل أبيض عابر الطريق، يرتفع من الأرض مثل عـــود السهام، ويدقر الإنسان، ولا يشفى المصاب بهذه الدقرة إلا

المـــوت، لكنه لا يدقر الهنود والعبيد ولا يضرهم، فلما رأيت هذا الحشيش وهو بعيد عشرة أذرع عن الدرب، إلا وارتفع وامتد يريد أن يجـــيء ويلدغ يني أفندي خازندار الموْن لأن لونه أبيض وهو قبطي من شبرا النملة، فخرج العبد الأحمر الذى كان معنا وصاح علـــيه بلغـــة الحمـــر: دونـــك يا كلب، فلما صاح عليه وقع على الأرض وأنـــا شاهدت ذلك بعيني مثلما شاهدت في ذلك الجبل تلك الأغصـــان الساوية المعدلة من غير ورق، وفي كل غصن ثلاث جوزات مثل القطن، فإذا انفتح جانب الجوزة، رأيت داخلها حمامة بيضـــاء بجناحـــيها ورجليها ومنقارها أحمر وعيونها سود، فهذه يسموَنها زهرة الروح القدس".

ناديت على عمتي:

ــ عمتي.. تعرفي أي حد يشوف الأثر.

ــ آه.. يامـــا، تعالي شوفي فيلم طاقية الإخفاء محطوط على القناة الثالثة.

خطـــر لـــي فجـــأة وقبل أن أواصل القراءة العودة إلى كتاب أمـــريكا اللاتينـــية مرة أخرى لأقرأه قبل مواصلة ما كتبه عثمان حفني، فقد يساعدني ذلك على فهم ما هو موجود بالأوراق فعلاً.

بقيـــت أيامًـــا بعد مكالمة رودلفو أتساءل: كيف يعتقد إنسان مـــتعلم واع وسياســـي كرودلفو في مسألة السحر، وكيف ينشغل العديد من الناس بهذا الأمر، وقد قرأت في إحدى الصحف اليومية خـــبرًا ذات مـــرة يشـــير إلى أن المصريين أنفقوا في عام واحد ملايين الجنيهات على السحر والشعوذة والخرافة.

ســألت نهال بينما كنا نزور زميلاً لنا بالمستشفى أصيب في حــادث عندما اصطدم الميكروباس الذي يقله من بلدته بني سويف إلى القاهرة بشاحنة ضخمة تحمل أطناناً من عيدان القصب:

ــ هــل تؤمنيــن بالسحر والعرافة؟. ألاحظ أن أناسًا كثيرين حولي يؤمنون بذلك!

زفرت نهال بمرارة وقالت:

ــ أظن أننا جميعًا كبشر في حاجة إلى بعض الأوهام، أوهام تدفعــنا للحلــم وتمنحنا القدرة على مواصلة الحياة، يظن البعض يــا خــالدة أن المــوت هو اللغز، لكن صدقيني، الحياة هي اللغز الحقيقــي، والســحر والشعوذة ليس أكثر من محاولات يائسة لفهم جانب من هذا اللغز.

عــدت فــي المساء لأجلس في غرفتي محاولة فك أكبر لغز صــادفته فــي حياتي، لغز عثمان حفني الذي وجدته قد كتب في الصفحة ٧٧:

"وفــي هــذه البلدة وبعض نواحيها يطلع القرمز، يلصق في بعض الأشجار ذات الورق السميك، فيلتصق مثل الدود في الورق ويصــير مــثل حــب الجــدري، ثم في حين بلوغه يستخرجونه ويضعونه في فرن حام، فييبس وينطفئ وبعد ذلك ييبسونه".

ومن أغرب الحوادث التي صادفناها في هذه البلدة، أن بشير نحــايل وهــو نفــر عــادة، كــان قد خرج أثناء الليل من خيمته بالــبلوكات ليتنسم الهواء، ويبدو أنه جلس للاسترخاء فغلبه النوم، فإذا بخفاش الليل الكبير المتواجد بهذه النواحي يهجم عليه ويمص

دمـــه ويســتفرغه وهــو يفصده ويتقيأ الدم، وبعد فترة أفاق بشير نحايل من نومته في حالة من الغثيان الكثير لكثرة الدم الذي خرج مـــنه، وقد تسارع إليه زملاؤه بالعلاج بعد أن تبينوا حالته وسقوه شراب الكينا المقوي وهو ما يستخدم هنا بكثرة لمواجهة الملاريا، وقــد شــرح لنا بعض الهنود بعد أن عرفوا بما حدث، أن خفاش اللــيل عــندما يهبط على الإنسان وهو نائم فإنه يهوّي له بجناحه ليطيب له النوم ويستغرق فيه فيقوم هو بمص دمه بمنتهى السلامة والهدوء ودون أن يشعر به ذلك المسكين".

"ومــا حــدث لبشــير نحايل إنما هو قليل من حوادث أخرى كثــيرة جرت لأفراد الأورطة في مكسيكيا وبلداتها أثناء الحرب، بســبب وخامــة الجــو وكثرة المستنقعات والوحلات والقرب من الــبحر المحــيط، وكــثرة الخلجان في تلك القرضة فالنفر كوكو كورنــك كــاد أن يموت ذات مرة بسبب شيء من جنس الدبابات أصــغر حجمًا من البرغوث ويسمى في اللسان الهندي بنكثوا، فقد هاجمــت هــذه الدبيــبة كوكو كورنك ذات مرة وهو غافل عنها وجازت في جسده وسرحت ومكثت فيه أربعة أو خمسة أيام دون أن يشــعر، لكــنه لاحــظ بعد ذلك تورمات صغيرة قدر الحمصة تظهــر فــي مواضــع مختلفة على جلده، فعندما فحصوه عرفها الأطباء الإسبان للتو، ثم أنهم استدعوا أحد الهنود الذين على دراية بهذا الأمر وهو عجوز مُجرب، فجاء بإبرة محماة وراح يستخرج هذه الدبيبة من جسم كوكو كورنك بصنعة وصبر ودون أن يفقأها، ثم أنه يحطها على النار فكانت تطق مثل الفرقوعة، وظل الهندي

يبحث عنها في كل موضع من مواضع الورم حتى أجهز عليها جميعها وقد علمت أن هذه الدبيبة خطيرة جدًا لأنها إذا لم تخرج بصنعة وفقئت ميتة على لحم الإنسان فإنه يتورم ويموت بسبب ما فيها من سُم زعاف قاتل".

رفعت رأسي عن الأوراق وقلت:

لن أذهب إلى سحرة وعرافين وكلام فارغ، رودلفو يبدو كالغريق الذي يتعلق بقشة، إنه يبحث عن أية وسيلة تقوده إلى أصوله المصرية ولكن إصراره هذا بدا غريبًا بالنسبة لي أيضًا، فما أهمية توصله إلى حقيقة جذوره المصرية الآن؟ ما أهمية أن يكون جده مصريًا أو صينيًا أو هنديًا أحمر أو غير أحمر؟ وجدتني أتساءل بدوري عن أصولي، اكتشفت أنني ما فكرت يومًا بهذا السؤال، ولا أظن أن أحدًا ممن أعرفهم حولي فكر في هذا السؤال، أنا مصرية وخلاص، أيًا كانت أصولي، مصرية والحمد لله.

ولكن لماذا تثيرني قضية أصول رودلفو وتأخذ مني كل هذا الاهتمام؟ ولماذا أعود كل ليلة إلى هذه الأوراق، كأنني علي بابا يعود إلى مغارته السحرية ذات الكنوز المخفية لأقرأ فيها بنهمٍ، علني أجد ما يشفي غليلي؟ ولكن ما هو غليلي هنا؟ هل أبحث حقًا عن عثمان حفني جد رودلفو أم أن هناك أمرًا آخر بات يشدني ويفتح عيني على عالم آخر غريب لم أكن أراه من قبل؟.

لقد كنت في حالة دهشة بالغة، ومنذ أن أوغلت في قراءة الأوراق من فكرة جلب أناس من عمق الغابة الأفريقية وجعلهم

جـنود حرب يقاتلون عدوًا لا يعرفونه ولا ضغينة في الأصل بينه وبيـنهم، جنود يقاتلون حتى الموت، ليس في السودان حتى، لأجل حـاكم الخرطوم، وليس في مصر لأجل عيون الخديو، وليس في استانبول لأجل الحفاظ على الخلافة وبابها العالي، ولكن ويالالعجب في المكسيك لأجل فرنسا ولأجل إمبراطورها نابليون الثالث.

شـعرت أن القصـة على رغم مأساويتها، إنما هي نوع من المهـزلة، خصوصًا وأن هؤلاء كانوا عبيدًا، أي بشرًا تم صيدهم صـيدًا كالحـيوانات الكاسـرة من عمق الغابة الأفريقية السوداء، بـالقوة وقسـرًا، ليتحولوا جبرًا إلى جنود يحارب بهم هنا وهناك، عدت لقراءة الأوراق مرة أخرى: الصفحة ٧٨.

"وكـان ذلـك بعد أسابيع قليلة من دخولنا مكسيكيا، وإقامتنا للحـرب فـي فـيراكروز، إذ أنه كانت تجيء نساء كثيرات من الهـنديات والمولدات، بعضهن لم يتجاوز سنّ الطفولة بعد، وذلك لخدمة الجنود الذين كانوا ينزلون بدورهم إلى بيوت الخنا المنتشرة فـي الـبلدة انتشـارًا كبـيرًا لقضاء أوطارهم، ورغم أنني طالما نصـحتهم ووعظـتهم بالابتعاد عن ذلك، إلا أن علامات المرض الإفرنجي بدأت بالظهور على بعضهم، وفي الساعة الثامنة صباحًا مـن يـوم الثلاثاء الفائت جاء أطباء فرنساوية للكشف على جنود الأورطـة، فتعرضوا لأعضاء التناسل منهم والشرج وباطن الفم، وتـم عـزل اثنين منهم عن باقي الأورطة لحين ترحيلهم حتى لا يتفشى الوباء بين الجميع".

"ومن مساوئ الحرب بعيدًا عن الأوطان، أنه في الوطن كان

يســمح عادة لعائلات الجنود بالانضمام إليهم وتتبعهم من معسكر إلــى آخر طالما ظلت الآليات مقيمة فيه، ومن الطرائف في ذلك، أنــه لما تم إيقاف ذلك لأسباب صحية، فقد كانت بعض الزوجات تتــنكر في زي الرجال وتتبع زوجها أينما حل، وكذا كانت تفعل بعض من النساء الخواطئ المشتغلات بالمهنة".

"ثــم إنني فكرت في شراء جارية من سوق النخاسة بالبلدة، فلمــا ذهبــت إلى ذلك السوق، وجدت أن معظم العبيد من السود المجلوبيــن مــن بلــدان السودان الأفريقي للعمل في الفلاحة وما شــابه، إضــافة إلى العديد من الهنديات المولدات، ومعظمهن في حالــة رثة من البداوة والفقر، وقارنت ذلك بتجارة العبيد وأسواقها عندنا في مصر، فشتان بين الاثنين، حيث إن لدينا بمصر جوارى مجلوبين حسب العرض من كافة الأصقاع الباردة والحارة، فلدينا البــيض والصــفر والحمر والسود، حيث الملاحة والحسن وجودة التربية ولطف السلوك والمعشر".

"وبيــنما أنا عائد إلى بلوكات الآلاي وقد خاب أملي في انتقاء جاريــة، أبتاعها بحّر مالي وتكون تحت تصرفي وأمري، إذ أنفت نفســي من كل ما رأيت بالسوق، وإذ بامرأة واقفة تبيع بعضًا من غــلات الأرض الغريــبة التــي ما رأت عيني مثلها من قبل قط، فوقفــت أتأمل ما لديها، وأشاريها، وكان ضمن ما تبيعه نبت أشبه بحبات الطماطم الصغيرة في استدارته ولونه، فتذوقت بعضًا منه، وحــرت، إذ كــان لا حلــوًا ولا مرًا، ولم أتبين إن كان فاكهة أم خضــارًا مــن خضــروات الأرض، وكانت عليه جبة كاسية من

أوراق صـــفراء ذهبـــية اللـــون جافـــة، فلما اشتريت بعضًا منه وتذوقته، طاب في فمي، ووجدتني أرغب في صاحبته وقد أمعنت فيها النظر، فوجدتها مولدة مليحة بها من الهنديات الشعر المخملي الأســبل الغزير، والبشرة النحاسية الصقيلة، أما عيناها فكانتا أميل إلـــى لون الكهرمان الداكن المطبوخ، وكانت عجيبة الحسن، ذات أســنان بيضاء ناصعة كنثر اللؤلؤ المخبوء، وكان لها صدر ونحر ما رأيت أفتى منهما وأنهد، فهاجت مشاعري، وتملكتني الطبيعة، وأخذت أطيل الوقوف عندها متعللاً بالشراء، ورحت آخذ وأعطي معهـــا بكـــلام الإشـــارات ولغة التنهدات وتسبيل الجفون، ووضع الـــراحات علـــى موضع القلب، وضم الشفاه، ثم إنني صرت أمر عليها بين الحين والحين، كلما استطعت إلى ذلك سبيلا حتى..."

"يـــا خبر أسود".. صحت وأنا أشهق شهقة طويلة عالية لفتت انتـــباه عمتـــي التي كانت تجلس قبالتي تلفق كم فستانها المفتوق، وجعلتها تضطرب فصاحت بدورها وهي تدب على صدرها:

ــ بسم الله الرحمن الرحيم.. اتخضيت، خير.

ــ تصوري.. بقية الكلام طار. أهم كلام في الحكاية اختفى، يظهر أن جدة رودلفو عملت به تعويذة.

كانـــت عمتـــي تظن أن هذه الأوراق إنما هي أوراق قضية هامـــة أشـــتغل عليها وأدرسها بجدية واهتمام، وأعطيها من وقتي وجهـــدي أكثر مما أعطي لأية قضية أخرى فلما سمعتني أقول ما قلته قالت:

ــ صـــلي على النبي واتهدي وبالراحة دوري هنا ولا هناك

يمكـــن تلاقـــي الورقة واقعة منك تحت السرير أو محطوطة على الكومودينـــو، أصلك قاعدة تشتغلي مرة على المكتب ومرة وأنت ممـــددة علـــى السرير وامبارح شفتك داخلة بالورق ذاته التواليت ولمـــا الورق يضيع تشهقي وتصرخي.. عن نفسي أنا: كل ورقة وكل قصقوصة وكل حاجة تخصك ألاقيها واقعة، أرفعها وأحطها في مطرحها ولا شيء يمكن أن يضيع أبدًا.

ازددت غـــيظًا من كلام عمتي، وكنت متأكدة من رغبتها في افـــتعال قضية خلافية نتساجل فيها، ولما لم أكن غير مستعدة لذلك خـــلال هـــذه اللحظـــات ومغـــتاظة جدًا من جدة رودلفو وأحملها مســـؤولية ضياع أوراق قضية عثمان حفني الثمينة، فإنني آثرت الانسحاب من الحرب التي أعلنتها جدتي وآثرت القول:

ــ طيب. طيب.

وتجاهلت أن عمتي ليست فاهمة أي كلمة مما قلت وكما قالت منهية كلامها وبدأت أفكر: إذن قد تكون هذه جدة رودلفو الكبرى، الجـــدة التي تزوجت، أو لم تتزوج من عثمان حفني، لكنها كانت سبب السلالة وأصلها، السلالة التي استمرت حتى رودلفو، وربما تكـــون هـــي المرأة التي عاش معها طويلاً حتى مات أو عاد إلى مصر وبقيت معها أوراقه لسبب من الأسباب.. شعرت بحنق بالغ لأن حكايـــة عـــثمان حفني بدت لي وكأنها على وشك الانتهاء أو أننـــي صرت قاب قوسين أو أدنى من معرفة تفاصيل حياة عثمان حفني وأصله وفصله، تنهدت بحرارة فبعد صفحة ثمانية وسبعين، كانـــت هـــناك اثنـــتا عشـــرة صفحة ناقصة بالتمام والكمال ربما

احتوتها حكاية عثمان حُفني مع السيدة الهندية التي وقع في غرامها و"أهاجت مشاعره"، وما رأى "أنهد من نحرها وصدرها"، وظل يتسبب بالأسباب ليمر عليها، فالورقة التالية من الأوراق بعد ذلك كان رقمها التسعين.

"وما كادت الأورطة تستقر ببلاد المكسيك، حتى صدرت الأوامر لها وللكتائب الأجنبية وفرق المتطوعين من المكسيكيين الفرنسيين بتطهير الأراضي الحارة من زمر اللصوص الذين كانوا يعيثون فيها فسادًا".

"ولما حوصرت مدينة بويبلا وهي المدينة الثانية في الأهمية من مدن المكسيك من ٢٣ فبراير إلى ١٧ مايو الإفرنجي سنة ١٨٦٣، حيث سقطت واستسلم من حاميتها ٢٦ جنرالاً و٩٠٠ ضابط و١٢ ألف جندي، كان من اللازم الاحتفاظ بالمواصلات التي كان المكسيكيون يحاولون دومًا قطعها بين الساحل وهذه المدينة.

فكانت الأورطة السودانية المصرية أهم قوات صيانة المواصلات في الأراضي الحارة حتى قال القائد العام في فيراكروز عن جنودها إن ليس لديه ما يبديه بشأنهم إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه".

تنهدت وقلت "طظ فيهم يا عثمان يا حفني"، ثم تابعت قراءة السطور:

"ثم استخدم قسم من الذين وقعوا في الأسر في بويبلا في أشغال السكة الحديد، وهي الأشغال التي كان يجري العمل فيها

بهمـــة زائـــدة في معظم البلدان التي صادفتها هنا، لأنها ألزم لنقل الأورطـــة والجـنود، وأجـــدى من سائر ما عداها من سبل النقل والحــركة، فدعــت الحالـــة إلـــى تكليف بلوك ونصف بلوك من الأورطـــة السودانية لحراستهم والذب عنهم، فقاموا بذلك خير قيام وتقدمـــت الأعمـــال ســريعًا دون أية عرقلات أو خوف من هذه الناحية".

تصـــاعدت أفكار كثيرة إلى رأسي وأنا أقرأ ما سطره عثمان حفني، وخطر ببالي في أثناء ذلك أن أعود لكتاب أمريكا اللاتينية مــرة أخـــرى، فقد يساعدني ذلك على فهم ما وراء السطور، فقد بدأت أنتبه لزمن العبيد وعالمهم، فعثمان حفني يتناول فكرة شراء جاريـــة من السوق بمنتهى البساطة، ودونما أي خجل وهو الشيخ المعمـــم ويكتـــب عن عزوفه عن شراء الجارية بسبب عدم وجود واحـــدة بالسوق مطابقة "للمواصفات المطلوبة"، أو تتناسب وذوقه ومزاجه النسائي، والأكثر أنه يقارن بين البضاعة البشرية في هذا الســـوق، والبضـــاعة التـــي تعرض في أسواق القاهرة، تذكرت العبارة الشهيرة التي كنا ندرسها في المدارس ونحن أطفال والتي قالها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه "متى استعبدتم الناس وقـــد ولدتهـــم أمهـــاتهم أحرارًا"، كما تذكرت عبارة الزعيم أحمد عرابي، "لسنا عبيدًا لكم ولقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا" لقد قالها للخديو توفـــيق إبان ثورته بعد عقدين تقريبًا من كتابة عثمان حفني لهذه الأوراق، "يـــاه"، قلـــت، وقررت أن أقرأ كتابًا مفصلاً عن عرابي وثورته أحضره من إحدى المكتبات.

رغبت حينئذ في العودة إلى كتاب أمريكا اللاتينية وقراءة المزيد فيه، وبينما أخذت أتفحّص الكلمات والسطور بعينيَّ وأشدد بقلم رصاص على بعض الكلمات والجمل، وتوقفت طويلاً عندما يلي:

"كانت حزم العبيد التي تنجو من الجوع والأمراض وتتكدس في السفن تعرض في الأسمال جلدًا على عظم في الميدان العام بعد أن تمر في استعراض عبر الشوارع ذات الطراز الاستعماري على أنغام موسيقى القرب، أما من يصلون إلى الكاريبي وقد بلغ منهم الإرهاق مبلغه فيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يلمعون، وكان الصاغة يقدمون أقفالاً وأطواقًا من الفضة للزنوج والكلاب، وكانت السيدات الأنيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد تكسوه سترة مطرزة وطفل عبد وسروال فضفاض من الحرير".

علـــى الرغم من متاعب مهنة المحاماة التي ما أحببتها يومًا، وعلى رغم طبيعتها المُرهقة المستنفزة للجهد والطاقة العصبية، إلا أنهـــا مهنة مثيرة، تجعل الإنسان يعيش تفاصيل كثيرة غريبة في الحـــياة والمجـــتمع، وفي مهنة المحاماة أتعلم كل يوم شيئًا جديدًا وأتعـــرف على عالم ما كنت أتخيل أنني سأعرفه من قبل، وحكاية الحـــاج أحمد هدوجة من الحكايات الغريبة التي صادفتها بالأمس خـــلال عملـــي فـــي المكتب، فلقد جاء الحاج أحمد وكما قال من العاصـــمة النيجيرية لاجوس إلى القاهرة، وحضر إلى مكتبنا مع أخـــته "ســـمراء" المقـــيمة فـــي مصر، طالبًا رفع قضية للقضاء المصري.

ـــ خير يا حاج أحمد؟. تساءلت.

قالت أخته سمراء وهي الحقيقة سوداء، إنها ورثت أموالاً هي وأحمـــد أخوهـــا بعـــد وفاة والدتها المصرية، لكن أولاد عم أمها رفضـــوا تمكين أحمد من بقية التركة، لأن البيت الذي تركته أمها كإرث بعد وفاتها، يسكن فيه أولاد عم هذه الأم، و..

ـــ لكن وما المشكلة يا ست سمراء؟

ـــ المشـــكلة أن أخي بدون جنسية مصرية، وأنا حاصلة على

الجنسية المصرية لأني تزوجت من مصري، وأحمد ظل على جنسية والدنا النيجيري.

ـ يعني أمك وأم أحمد مصرية، والأب نيجيري؟

ـ أي نعم. لأن الوالد الله يرحمه، كان قد تعرف إلى خالي وهو جندي في الجيش المصري، ذهب للحرب في نيجيري و..

ـ ذهب للحرب في نيجيري؟

ـ آه. جاء للحرب في أقليم بيافرا، عندما كانت هناك مشاكل في نيجيريا أظن سنة ١٩٦٨، ثم جاء إلى مصر وتعرف إلى عائلة خالي محمد، ثم خطب أمي وتزوجها، وأنجب منها ثلاثة بعد أن أخذها إلى نيجيريا. الحاج أحمد وأنا وأختي سميرة، الله يرحمها، لكن أمي لم تسترح في كانو ورجعت من نيجيريا إلى مصر، وكان أبي يحضر إلى زيارتها بين فترة وأخرى، لأنه كان يتاجر ويأخذ بضائع كثيرة من مصر، وبعد فترة مات أبي وأمي وراءه، وأنا تزوجت وبقيت في مصر و..

قاطعتها:

ـ هو كان فيه حرب بين الجيش المصري وبين نيجيريا فعلاً.

ـ لا، الحرب كانت بين قوات انفصالية وبين الحكومة النيجيرية، وفي نيجيريا استنجدوا بالمصريين لمساعدتهم، كان الموضوع كله أيام عبد الناصر والحكاية خلصت والحمد لله، ولكن شوفي يا أستاذة النصيب. بسبب الحرب، أمي تزوجت من أبي!، ها ها ها..

ابتســم الحاج أحمد بدوره، وكأن كلامها أسعده فجأة، وبدا لي حينــئذ بملابســه الأفريقية البيضاء الفضفاضة، وكأنه نيندا، أحد شخصيات عثمان حفني في أوراقه، بينما استأنفت سمراء:

ــ الحاج أحمد مبسوط وميسور، ولكن الحق حق، يعني لأنه بعــيد، وغريــب، يقوم أولاد عم أمي يأكلون حقه ويحرمونه من شرع ربنا.

بــدا لــي الأمــر وكأن سمراء هي التي سوف تحصل على الورث ــ شرع ربنا ــ فالحاج أحمد "بعيد وغريب وغني".

قلت:

ــ لا عمومًــا، نرفع عليهم قضية، ويكون خير إنشاء الله، ثم إنــي طلبت منها أن تصور كافة المستندات التي تثبت حق الحاج أحمــد فــي المــيراث وتوافيني بها، وكذلك أوراق ومستخرجات رســمية أخــرى لازمــة لإثبات حقه في الملكية، ثم إني غادرت المكتــب عــند نهايــة اليوم بعد انتهاء العمل، وبينما كنت أستعد لركوب مترو الأنفاق في طريقي إلى البيت، رحت أفكر في حكاية بيافرا هذه التي لم أقرأ عنها في كتاب مدرسي أو جريدة وأتساءل: هــل حــارب المصريون في أفريقيا أيضًا، أو حارب المصريون الأفريقــيون فــي أفريقــيا؟. لماذا؟. ما المشكلة؟، وما الفائدة؟. لا أعرف.

وعــدت نفســي وأنا عائدة إلى البيت بأن أقرأ شيئًا عن هذا الموضــوع، موضــوع الجيش المصري في بيافرا، وتمنيت أن تكــون عمتي قد عملت لي بسيسة الذرة التي وعدتني بخبزها قبل خروجي في الصباح.

لـــدى عمتي هواية اقتناء الأشياء القديمة، لذلك فهي لا تكف عن الذهاب إلى المزادات واللف والدوران بين الحين والحين على محـــلات الأنتــيكات، لتعود من ذلك بساعة حائط لا تحتاجها لأن الوقــت لديهـــا بجرعات كبيرة، أو بفازة أو شمعدان لا لزوم لهما على الإطلاق، عمومًا أنا لا أجد معنى لكل ذلك، لكني لا أرى فيه ضررًا أيضًا، وأقول: هي تسلي وقتها، عندها فراغ هائل، وصباح اليوم، الجمعة، دعتني للخروج معها والفرجة على سوق الجمعة، ولكنـــي وكما تعودت مني دائمًا، رفضت واقترحت عليها أن تأخذ واحدة من صديقاتها، لكنها قالت:

ـــ لا، أصـــل ســوق الجمعـــة في الإمام، سأروح بعد صلاة الجمعـــة إنشاء الله، وهو سوق شعبي خالص، لكن فيه كل حاجة، عزيزة الشغالة قالت لي عليه أول امبارح وهي قاعدة تعمل ورق العنـــب، أصلها كانت لابسة خاتم فضة بفص مرجان، حلو خالص وقديـــم، فلمـــا سألتها قالت إنه من سوق الإمام، وتصوري بخمسة جنيهات بس.

تثاءبت وقلت:

ـــ يـــا عمتي يوم الجمعة هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي

أقدر أحط جسمي وأستريح فيه بعيدًا عن المواصلات وقرفها، وزحمة وسط البلد، روحي مع عزيزة أحسن.

ــ والنبي فكرة.. خلاص، بكرة لما تصل الصبح لتنفيض الشقة أتفق معاها.

لكني فجأة تداركت، وقلت بحماس:

ــ لا.. أحب أروح معكِ.

كانت صور سوق غريب، قد قفزت بمخيلتي للتو، صور سوق رسمه عثمان حفني في أوراقه، فقد أغلقت عيني قبل أن أنام على مشاهد من سوق هندي في مكسيكيا رآه منذ ما يقرب من قرن ونصف، وكله في أوراقه القديمة في صفحة ٩٦، وما تلاها:

"وكان هناك بائعون يبيعون اللوبيا والمريمية والخضروات بأنواع وأصناف عديدة، لم أشهد مثلها من قبل في مصر، وكان يوجد من يبيع الدجاج والديوك الرومية، والأرانب البري منها والمستأنس، والغزلان ومنها نوع يسمى بيكونيا وهي كصورة الغزال لكن بلا قرون، فهذا الحيوان وكما علمت بعد ذلك عندما تساءلت عنه، هو قوي أنيس له صوف ناعم كالحرير يصنعون منه البرانيط والطواقي التي تباع في السوق أيضًا. وصوفه يشبه التفتيك أي الصوف الناعم، لكن لونه عسلي كلون الغزال، وفي بطن هذا الحيوان يوجد حجرِ البازهر بين كليتيه فيخرجونه ويبيعونه بثمن غال لأنه نافع للسموم.

ثم هناك بائعو الفاكهة، وصنوفها تكون شتى، وكذا أحجامها، وجل أنواعها غير معروفة لدينا في بر مصر، ومنها نوع عجيب

اسمه السبوت يُؤتى به أخضر لم ينضج بعد من على الأشجار، ثم إنه يُشترى من السوق على هيئته، ثم يلف في شيء من الخرق أو الهدوم ويترك على حاله لفترة من الوقت، قد تطول إلى ثلاثة أو أربعة أيام، فينضج ويؤكل ما بداخله بعد أن يصبح محمرًا طريًا، وهو لذيذ للغاية، ومسهل للبطن الممسكة، وقد احتفظت بجانب من بذوره، لإنباته عندما أعود إلى مصر إنشاء الله.

وتوجد بالسوق نساء هنديات يبعن الطعام المطبوخ على طريقة هؤلاء الهنود العبيد، وكذا كعكات الدقيق والعسل والكرشة، إضافة إلى باعة الأواني الخزفية من كل نوع من أباريق المياه الكبيرة، إلى البرطمانات الصغيرة، والعسل والحلويات الشبيهة بحلويات مثل النوجا والملبن، وهناك من يبيع الورق المسمى بلغتهم "آمال"، وبعض قطع من سيقان البوص ذات رائحة العنبر السائل وهي مليئة بالتبغ والمراهم الصفراء وأشياء أخرى من هذا القبيل تباع في مكان منفصل.

ولا أنسى باعة الكوتشييل وبائعي الأعشاب، وبائعي الملح وصانعي السكاكين من حجر الصوان، وبائعات السمك والرجال الذين يبيعون كعكات صغيرة مكونة من نوع من الأعشاب يستخرجونه من البحيرة العظيمة بهذه الفرضة، وهو يتخثر ويكون نوعًا من الخبز له مذاق الجبن، ثم هناك من يبيع البلط المصنوعة من البرونز والنحاس والقصدير، وأوانى وأباريق خشبية مطلية بألوان زاهية".

بت متيقنة تمامًا أن عثمان حفني من الرجال الذين أثروا في

تفكيري تأثيرًا كبيرًا، بالأحرى، لقد تعلمت منه الكثير مما كنت في الحقيقة أجهله، كان عثمان حفني بمثابة إشارة إلى طريق، لم أكن أظن يومًا أنني قد أسلكه، فكلما توغلت في قراءة أوراقه المجهولة الصفراء، أكتشف أنني لم أعرف يومًا ــ من قبل ــ ما كان يجب أن أعـرفه، وأننـي لم أتعلم شيئًا في المدارس والجامعة يستحق الـتوقف والـتأمل، مثلما أتعلم من هذه الأوراق الآن، لقد اكتشفت أننا كمصريين، أو سودانيين، أو أفارقة، أو عرب، لم نكف يومًا، وعـبر الـتاريخ عن صناعة التاريخ، ولكننا نعرف أقل من القليل عـن ذلك التاريخ الذي شكلناه وصنعناه بعرقنا ودمائنا وأرواحنا، إنـنا بالأحـرى لا نعرف شيئًا عن أنفسنا.. رحت أستعرض في ذاكرتـي مـناهج، وبرامج التاريخ التي كانت مقررة منذ دخولي المدرسـة وحـتى تخرجـي من الجامعة، لم تكن ــ وفي أفضل الأحـوال ــ أكثر من عجالات وابتسارات وقشور هزيلة لا تؤول إلى مغزى، وفي العموم هي حقائق تم تزييفها وإخفاء أهم ما فيها مـن دلالات، نحـن لم نعرف أو ندرس شيئًا كطلاب عن تجارة العبـيد مـثلاً، لم نعرف شيئًا عن العبيد إلا من الروايات والأفلام والمسلسـلات الأمريكـية الشـهيرة، وكأن الفصل الأول، المفتتح الأساسـي لهـذه الصفحة السوداء المظلمة من تاريخ البشرية، لم يحـدث هـنا، هـنا في أفريقيا التي نعيش فيها وننتمي إليها، وما تخيلنا يومًا أننا جزء منها كمصريين، إن عثمان حُفني يتحدث في صـفحته عـن رغبته في شراء جارية بمنتهى البساطة وكأن ذلك أمر عادي، ولكن ما قرأته في الصفحة السابعة عشرة بعد المائة،

من هذه الأوراق بدا لي مستحقًا للتأمل والتفكير:

"ولقد أخبرني الملازم فرج عزازي، وهو الخبير العليم في شؤون العسكرية، أن معظم العبيد السود المجلوبين إلى مصر زمن الباشا الكبير محمد علي، إنما كانوا لتغذية الجيش بالجند وعمل الأورط، فكان الآيان الواحد يتألف من هؤلاء العبيد من ثلاث أورط، والأورطة الواحدة ثمانية بلوكات.

وكذلك علمت منه أن العبيد السود، كانوا يعملون كذلك في مصانع البنادق والمدافع والبارود والحدادة، والمهمات التي أنشأها الباشا الكبير في القلعة، كما أن النسوة العبدات السوداوات كن يشتغلن بمدرسة الولادة، وكان الخصيان يعملون في خدمة وراحة حريم الأسرة الكبيرة للباشا، وقد ذكرني ذلك بما حكيته لألماس أفندي بينما كنا نتسامر ذات ليلة على ظهر المركب قبل وصولنا إلى فيراكروز بقليل عن حادث وقع لي يتعلق بذلك الأمر، فقد تم تطويش عبد صبي صغير في قرية زاوية الدير قرب أسيوط، وهي من القرى والأماكن المعروف عنها حرفة التطويش والجب، وكان الوقت خريفًا كما هو متبع لعمل مثل هذه العمليات التي اعتاد القساوسة الأقباط القيام بها لمهارتهم فيها، فتم قطع موضع الذكورة لدى الغلام بموسى، وجرى صب الجرح بزيت مغلي كما هو متبع، ووضعت الأنبوبة في الفتحة الباقية حتى لا ينسد مجرى البول، وبعد ذلك تم رشه بمسحوق الحناء، وجرى دفن الصبي حتى بطنه في الأرض لمدة يوم كامل بعد تقييده وربطه، غير أنه بعد مرور اليوم وبينما هم يخرجونه لدهنه بمرهم الطمي والزيت،

تشنج الصبي ورفس واتضح أنه مصروع وقام بعض لسانه وقطعه، وكنت قد شاهدت ذلك كله أثناء خروجي إلى هذه البلدة بأسيوط مع ابن عمتي الحاج خليل، إذ كان ثريًا من أعيان الحُفن، ورغب في شراء فتى خصيًا يهديه لواحد من أجلاء معارفه في طنطا، ليقوم على خدمة حريمه، وعندما مات الصبي، كانت الخسارة كبيرة لمالكه، لأن المطوش يباع بسعر مرتفع يفوق كثيرًا ما يباع به العبد العادي لأن الغلام سليم البنية الذي لا يطوش يباع وحسب حالته ما بين أربعمائة إلى خمسمائة قرش، فما بالك بذلك المطوش المخصوص".

"وكان الملازم فرج عزازي وكما علمت منه، تقلاويًا في الأصل، نسبة إلى جبال تقلى الواقعة في الجنوب الشرقي لمدينة الأبيض، وهي عاصمة إقليم كردفان، قد خطفه النخاسون وهو طفل صغير وباعوه في مدينة أسوان لرجل من قبائل الهوارة المشهورة في بر الصعيد كله، بما لها من سطوة ونفوذ، وكان ذلك الهواري يقيم في بني سويف، ثم أن الملازم فرج عزازي لما شب، انتظم في سلك الجندية في عهد المغفور له عباس باشا الأول، ومنح رتبة الملازم الثاني في إبان ولاية ولي النعم الحالي وجاء مع الأورطة إلى المكسيك، وقد لاحظت أثناء حديثنا عن العبيد وأحوالهم أنه صار حزينًا كئيبًا فاقدًا لبشاشته المعهودة، وقد قال لي إنه رغم مرور السنوات الطويلة وانشغاله بما ينشغل به الناس في هذا الدنيا من أمورها الفانية، إلا أنه لا يتشوق لأمر، ولا يتمنى أمنية، قدر تشوقه وتمنيه معرفة طريق أهله، والوصول

إليهم بأي شكل من الأشكال، وقد قال لي إنه طالما أرسل المراسيل، ودفع من الأموال الكثير، حتى يتحقق ذلك الأمر دون جدوى، وأن ما يؤرقه أكثر هو أنه لم يعد يذكر وجه أمه أو ملامح أبيه، فقد خطف وهو في حوالي الخامسة من عمره ودون سن الوعي والتفطن إلى الأشياء".

قلت: ألم تقل له يا عثمان حفني، أن النخاسين ربما خطفوا أمه وأباه، وربما بقية أهله كلهم أيضًا؟. ألم تقل له يا عثمان حفني كف عن البحث وعوضك على الله فيمن فقدت من أحباب؟ ألم تعتذر له وتتأسف عن المخازي التي ارتكبت في حق الإنسانية بسبب جرائم العبودية الدامية البشعة؟.

ليتني أعرف ما الذي قلته له، وليتك كنت قد كتبت شيئًا في هذا الأمر، أو لعلك كتبت ـ وإن كنت أظنك لا تستنكر العبودية ـ وقررت جدة رودلفو محوها من ذاكرة التاريخ على طريقتها الخاصة. عمومًا، كانت أوراق حفني آخذة في التناقص وحكاياتها لا تنفك عن الترسب بأعماقي ألمًا وحزنًا ودهشة من قسوة عالمنا وعنفه وتنوع أساليب الفتك بضحاياه من البشر، لم أكن وحتى هذا الحد من قراءتي لأوراق عثمان حفني، قد وجدت ما يشفي غليلي، ويوصلني بخيط ما حقيقي إلى قصته وأصله وفصله، وبت أكثر تشوقًا ـ ربما من رودلفو ـ لمعرفة نهاية هذه القصة، أو بالأحرى بدايتها، ولكن ما بتّ متيقنة منه تمامًا أن هذه الأوراق قد جعلتني كغصن شجرة هزته الريح ولن يعود بعد ذلك إلى موضعه الأول أبدًا، كان ثمة شيء قد تغير فيّ، شيء جعل رأسي مسرحًا

لعشرات الأسئلة، أسئلة شعرت أنها أسئلتي أنا وأنها تخصني شخصيًا في المقام الأول وليس رودلفو، فالموضوع لم يعد بالنسبة لي، مسألة شخص يبحث عن عائلته المفقودة، وجدّه البعيد، بل هو موضوع بشر وأناس أنتمي إليهم أنا الأخرى، انتماءً أكبر، بشر وأناس عاشوا وماتوا دون أن ينتبه أحد إلى حياتهم، أو يهتم بها، بكل ما حوته من آلام وآمال، ودموع حرب.. لم يختاروا يومًا دخولها أو المشاركة فيها، وأجبروا على أن يكونوا وقودها ونارها إجبارًا.

لم يعد يعنيني ـ وللحقيقة ـ موضوع عائلة رودلفو، وجده عثمان حفني، فلقد خبا حماسي له، فحتى لو توصلت إلى أي خيط في هذه الأوراق، إلى بقايا هذه العائلة ومكان وجودها في مصر الآن، فسيكون ذلك بمثابة تحصيل حاصل، والتزامًا بعهد قطعته مع نفسي لرودلفو. قررت أن أكتب رسالة لرودلفو عن الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها كلها، وكان آخر ما قرأته هو صفحة ستة وستين حيث كتب عثمان حُفني:

"وكنا في شهر ديسمبر عندما أبلغت الأورطة في فيراكروز أن إمبراطورة المكسيك ستمر بالبلد وهي ذاهبة إلى بلدة اليقطان إحدى الولايات في مكسيكيا، فتأهبت الأورطة وتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتأمينها عند مرورها بالبلدة، وعمل المراسم والتشريفات اللازمة لدى وصولها إلى الأراضي الحارة".

"وفي صبيحة ١٤ منه سافر حرس مؤلف من ثلاثين جنديًا من الأورطة السودانية المصرية بالقطار المخصوص الذي ركبه

الحاكم والأعيان الذين وفدوا لمقابلة الإمبراطورة.

ولما وصلت إلى فيراكروز وجدتها امرأة كبيرة السن، ترتدي الملابــس الإفرنجــية الفضفاضة، وكانت غاية في الأبهة، تكسو جــيدها بمجوهرات شتى، من ماس ولآلئ وياقوت وزمرد، ثم إن رجــال مدفعية الأورطة أطلقوا لها مائة طلقة وطلقة مدفع إكرامًا لهــا، وتألف من الحامية المؤلفة من جنود الأورطة وجنود آخرين صــفان من المحطة إلى القصر، وأقيم قره قول شرف من خمسين جنديًا من جنود الأورطة في القصر بقيادة يوزباشي وملازم.

ولمــا كانت الإمبراطورة ستسافر في صباح اليوم التالي من فــيراكروز، فقــد سافرت قبلها كوكبة من جنود وضباط الأورطة لاستكشــاف الطريق، ولتصطف على طول السكك الحديدية، ولم تلبــث الإمــبراطورة في اليقطان سوى بضعة أيام، ولدى إيابها، عمــل لها جميع ما عمل من التشريفات والاحتفالات عند مرورها بفــيراكروز، فلمــا عــادت إلــى مكســيكو أعربت للإمبراطور مكســيميليان عــن رضــاها وحــبورها لهندام الجنود السودانية وكفــاءتهم العسكرية التي حازت إعجاب جميع رجال البلاط وقد أخبرني بذلك ألماس أفندي بنفسه، ثم إن الإمبراطور مكسيميليان، منح كل جندي من جنود الأورطة علاوة يومية على الراتب ٣٣,٣ ســنتيم أي ما يساوي واحد قرشًا وخمسة عشر مليمًا مصريًا، كما تم الإنعام على بعض الضباط بالأوسمة".

"وفــي الثانــي مــن شهر مارس سنة ١٨٦٥، نشبت معركة طاحــنة بيــن الأورطة وبين المهاجمين من الأعداء، وقد أسفرت

المعـــركة عـــن مقتل مارشال الفرقة الفرنسي، وقد استبسل أثناء القـــتال الضاري الجنود والضباط المصريون السودانيون، وبعدها ونظـــرًا للبطولات الكبيرة التي قاموا بها لصد الهجوم، تم الإنعام بأوســـمة عسكرية ونياشين على الأنباشي مرجان مطر والعساكر رمضان كوكو وعلي إدريس وأنجلوسودان ونوّه بأسمائهم".

"وبعـــد ذلـــك بشهر، جاءتنا الأنباء من مصر المحروسة أن الخديـــو إسماعيل باشا، أنعم بالوسام المجيدي من الدرجة الرابعة على الماجور مارشال مكافأة له على عنايته بشؤون الأورطة قبل أن يعلم بوفاته، كما ورد أمرٌ عاجل إلى صاغ الأورطة تم قراءته علـــنًا على الجميع، وقد أثنى فيه سمو الخديو على المسلك الحميد والمنهج السديد لضباط وجنود الفرقة وأنه يجري في مصر ترتيب ضـــباط وعساكر بدلاً منهم ليرسلوا إلى مكسيكيا، وأنه قريبًا إنشاء الله سيرســـل ذلـــك البدل المذكور، ونعود نحن جميعًا إلى مصر المحروســـة، حيـــث أن اقامتنا في مكسيكيا قد طالت، وأن غربتنا عـــن الوطـــن قـــد زادت. كما تلا نص الفرمان المتعلق بالنيشان المجـــيدي المهـــدى مـــن الســـلطان عبد المجيد والمنعم به على البكباشـــي مارشـــال الفرنسي، والمسكين لن يعرف بكل هذا ولن يستفيد منه بعد أن قتل، وهنا تمثلت قول الشاعر إذ يقول:

أتيـــت القـــبور فناديتهـــن ... أيـــن المُعظـــم والمحـــتقر
وأيـــن المُـــذل بســـلطانه ... وأين المُزكى إذا ما افتخر"

"ومن محاسن الصدف أنه أثناء وجودنا ببلدة جومس بلاسيو مع الأورطة إذ كانت الأوامر قد صدرت بالتحرك إليها لمقاومة العصابات المغيرة عليها يومًا بعد آخر، وأثناء تجوالي في البلدة، وهي من البلدات الجميلة العامرة بالأشجار المثمرة والأبنية والقصور التي ما رأت عيني قط مثلها من قبل، وبينما أنا أتجول، إذ وجدت رجلاً وسيمًا عربي الهيئة يتطلع في سحنتي ويتفرس، ثم إنه أقبل عليّ، وأقبلت عليه وقد أخذني الحنين ودفعتني روابط الدم دفعًا لمحادثته، فعرفت أن اسمه حضرة سليم أفندي الحاج، ثم إننا جلسنا في مشرب من مشارب البلدة نتحادث سويًا، فعرفت أنه من بلدة بحاجيا بلبنان وأنه عضو بكلوب روتاري، وأنه جاء إلى هذه البلاد لزيارة بعض أقاربه الذين هاجروا إليها، وأنه يفكر جديًا في الهجرة إليها، والاشتغال بالتجارة فيها، خصوصًا بعد أن لمس بنفسه نجاح أقاربه هؤلاء وتحقيقهم للثراء، وكان سليم أفندي وكما أدركت من كلامه رجلاً قارئًا مطلعًا، في عقله ذكاء واستنارة، فقال لي إن الفرنساوية سيخسرون هذه الحرب لا محالة، وأن هذه البلاد لابد وأن تقع يومًا تحت هيمنة الحكومة الأمريكانية، وقد قال لي إنه تفطن إلى ذلك لأنه جال في بلدان ومدن كثيرة في أمريكا اللاطينية، وأن الفرنساوية لا تضارع قوتهم، وكذلك الدول الأخرى قوة الأمريكان ودهاءهم، ثم إنه أخبرني، أنه بينما كان يتجول في شوارع البلدة في اليوم الفائت، شاهد على عتبة باب كنيسة من كنائسها كتابة البسملة بالعربية الراضحة وبخط نسخ جميل، وأنه حار فيما إذا كانت الكتابة قديمة أم هي كتابة جديدة،

وأنه سأل بعضًا من أهل البلدة عنها، فقالوا له إن واحدًا من المصريين السودانيين الذين يعسكرون هنا هو الذي كتبها، وعندئذ تبسمت، وقلت له إني كاتبها منذ عدة أيام، ولا أدري لماذا، فالكنيسة جميلة البنيان ومزينة بزخارف بديعة، وربما اشتهيت أن تكون جامعًا للصلاة، فكتبت ما كتبته وأنا أدرك أن الأهالي لا يقرؤون العربية ولن يفهموا معنى العبارة، وحتى إذا فهموا فهي باسم الله الرحمن الرحيم، وهذا أمر مقبول به في كل الملل والأديان".

سامي، أخي الوحيد غير الشقيق، هو الأثر الوحيد الباقي لي من أمي، والدليل المستمر على زيجتها الأولى الفاشلة قبل زواجها من أبي. عاش سامي مع أبيه بعد انفصال الأخير عن أمي، ثم سافر بصحبته إلى هولندا حيث عاش معظم سنوات حياته وتعلم، ومنذ سنوات قليلة، وبعد وفاة أبيه سعى للاتصال بي، وكان أبي وقتها ما يزال على قيد الحياة، والحقيقة فإن أبي رحب ترحيبًا شديدًا بعودة العلاقات المقطوعة تاريخيًا مع أخي واعتبرها حدثًا من أهم حوادث حياته على الإطلاق، لكن سامي، على رغم تكرار زياراته لنا، وهي زيارات قليلة على أية حال ولا تتم إلا عندما يأتي لزيارة عائلة أبيه في مصر، ظل شخصاً غريبًا بالنسبة إليّ، فأنا لم أمارس علاقة الأخوّة معه منذ صغري، بالأحرى لم أفهم ـــ شعوريًا على الأقل ـــ فكرة الأخ، وربما يعود السبب في ذلك أيضًا إلى أن سامي بدا لي وفي النهاية كواحد مصري ينقصه شيء مصري، لا أدري على وجه التحديد ما هو؟، رغم أن تربيته تبدو مصرية تقليدية، مع كل السنوات الطويلة التي عاشها مع أبيه في هولندا.

لكن عمومًا علاقتنا ظلت طيبة، فهو يرسل لي الرسائل

ليطمئن على أحوالي بين الحين والحين وخصوصًا بعد وفاة أبي، كما ظل حريصًا على إرسال هدايا، ليس لي فقط، ولكن لعمتي باعتبارها كل ما تبقى لي من عائلة في مصر.

يوم الخميس الماضي، فوجئت برجل عجوز أسمر يدخل مكتبي بصحبة شاب صغير وسيم، كان العجوز يبدو متبرمًا متضايقًا وهو يرتمي على أقرب كرسي التقاه بالقرب من باب المكتب، بينما رأيت الشاب يسأل نفيسة فراشة المكتب عني، فأدخلته الغرفة وهي تشير ناحيتي وبادرني الشاب قائلاً وهو يقترب مني:

ـ الأستاذة خالدة خالد، أنا محمد عبد السميع صديق لسامي أخو حضرتك، وصلت من حوالي أسبوع من هولندا، وسامي بخير ومعي رسائل وحاجات منه لحضرتك.

ـ أهلاً وسهلاً.. قلت وأنا أقف وأمد يدي لتحيته، وأشير عليه بعد ذلك بالجلوس.. ناولني حقيبة بلاستيكية بها "الحاجات" التي أرسلها سامي وقال وهو يجلس على مضض:

ـ سامي نازل على آخر الخريف إنشاء الله، كان عاوز ينزل مصر معي لكن ظروف شغله لم تسمح.

ـ آه. شغل الجامعة صعب جدًا. أنا شفت ظروفه بعيني، ووقته الضيق لما كنت هناك.

بدا لي وكأنه لا يرغب بالمزيد من الحوار إذ قال بسرعة:

ـ الحقيقة أنا مستعجل لأن وقتي محدود وضيق جدًا في القاهرة، لكن معي زوج عمتي وهو رجل كبير في السن، وسامي

كان اقترح أنه يزورك ويعرض على حضرتك مشكلته لأنك على علاقة بمسائل حقوق الإنسان، وهو موجود بره، وأنا كنت حكيت حكايــته لســامي من فترة، وهو قال لي لما تنزل مصر رُح مع زوج عمتك وقابل خالدة.

ـ خلــيه يتفضل، قلت وأنا أقف مرة أخرى لاستقبال العجوز الأسمر الذي أتى به في التو قريبه "المستعجل".

وهكذا تعرفت على عبد النبي إدريس عن طريق أخي سامي المقيم في هولندا ويا للمفارقة، فالهدية الحقيقية التي أرسلها سامي لــي هــذه المــرة مع صديقه محمد عبد السميع، لم تكن البلوزة الصوف الموهير اللبني، ولا زجاجة عطر روشان ولا الإيشارب الشــيفون المشــجر لعمتي، ولكن حكاية عبد النبي إدريس كانت الهديــة الكــبرى وواحدة من أجمل الصدف ودواعي التوفيق التي صادفتها في حياتي خلال الشهور الأخيرة.

عبد النبي إدريس حكايته غريبة جدًا، فهو رجل عجوز، كان يعمـل بمصـلحة المساحة بالدقي منذ أربعينيات القرن الماضي، حتى أنهى مدة خدمته القانونية وبات يتقاضى معاشًا من الحكومة، وهـو ميسـور و"العيشة رضا والحمد لله"، وهو يرغب في رفع قضـية علـى الحكومة لتعطيه جواز سفر، لأنها ترفض ذلك كما يقـول، فهو يريد أن يذهب إلى السعودية ليرى ابنته الوحيدة، التي سـافرت مع زوجها وتعيش هناك، ولأنها وعدته بأن يظل عندها حتى "يحج ويكمل أركان دينه كلها".

ـ الله!؟ ولمـاذا ترفض الحكومة إعطاءك جواز سفر يا عم عبد النبي؟ قلت.

ـ كـلام فـارغ والله، قالوا لي أنت سوداني. روح السودان وهات جواز سفر.. تصوري.

قلت:

ـ الله، هو أنت سوداني والا مصري؟

ـ أنـا مصـري طـبعًا عشت هنا طول عمري، ولكن أمي ولدتنـي فـي الخرطوم، كانت في زيارة لأهلها ووضعتني هناك، لكـن أنـا مصري سوداني ولازم يعطوني جواز سفر. يعني أنا

خدمت أربعين سنة في الحكومة في مصلحة المساحة، وفي الآخر يقولون لي في مصلحة الجوازات أنت سوداني. شهادة ميلادك في السودان ورُح هات جواز سفر من الخرطوم. يصح؟.

ـ طيب هل عندك أية أوراق تثبت أنك مصري؟

رد بعصبية وكأنه على وشك الانفجار:

ـ أوراق؟. أقـول لك أني مصري. عندي بيت ملك مُسجل فـي الشـهر العقاري، وعشت طول عمري هنا، ودخلت الجيش وحاربت في سنة ١٩٤٨ في فلسطين، وبعد انتهاء تجنيدي رجعت لمصـلحة المساحة وتم تثبيتي بها، وقبلَها كنت موظف ظهورات غـير مثبت وحياتي كلها هنا، ومصر والسودان كانت عبارة عن بلد واحدة، وجدي حارب مع الجيش المصري في المكسيك و..

هتفت بابتهاج ودون أن أتمالك نفسي:

ـ في المكسيك؟. والله العظيم حارب في المكسيك؟

فوجئ الرجل برد فعلي، فتوقف عن الكلام ينظر لي مندهشاً، بيـنما راحت نهال زميلتي الجالسة على المكتب المجاور لمكتبي تضحك مما جعل الرجل يتساءل:

ـ حصل شيء يا أستاذة. مالكم؟.

ـ لا.. أبدًا، لكنك قلت إن جدك حارب في المكسيك، من قال لك عن هذا الموضوع؟!

ـ الله.. أصلها حكاية طويلة.. طويلة، تنفع والله تحكى للعيال كما الحواديت.

ـ طيب. تعرف عنها أي شيء؟ سمعت عن الموضوع من

أي قريب لك؟.

ابتسم عبد النبي إدريس بمرارة، شعرت أنه رجل دعكته الحياة بهمومها ومررته بمرارتها إذ قال:

ــ يا أستاذة جدي أنا كان الأميرالاي فرج الزيني بك، ولو قرأت في كتب التاريخ ستجدي أن اسمه مكتوب، ومسجل وقد خاض معارك مهمة سنة ١٨٦٥ هناك وأصيب خلالها بإصابات شديدة نظرًا لحماسته وبسالته في القتال، وكان وقتذاك مازال يحمل رتبة ملازم وكان يقود مؤخرّة الأورطة المصرية السودانية في المكسيك، وقد قام بخدمات جليلة كثيرة للجيش، ولما عاد حصل على رتبة اللواء، والفريق وقتل في واقعة الخرطوم بيد الدراويش في مايو ١٨٨٥، وأنا حافظ تاريخ جدي كله لأن أمي عندما مات جدي كان عمرها سنتين، وبعد وفاة والدتها تولت تربيتها عمتها وهاجرت بها إلى كسلا بعد أن استولى الدراويش على جميع ممتلكات جدي "أبوها" وفي سنة ١٨٩٠ تقريبًا قامت عمة أمي ومعها ثلاثة من العبيد ودادة البنت التي هي أمي للسفر إلى مصر، فاعترضهم الأعراب والدراويش في الطريق بين سنهيت وكسلا، وقتلوا عمة أمي المسكينة والعبيد الثلاثة وأخذوا البنت والدادة، ولكن يشاء السميع العليم أن يتعرف على البنت والدادة بعض العساكر الذين تجندوا باشبوزق بالطليان (لم أفهم معنى ذلك) فأخذوهما وقدموهما لحاكم سنهيت الذي أرسلهما إلى مصوع فسواكن فمصر، فلما حضرت أمي مصر كان القائمقام صالح بك حجازي حيًا يرزق فالتزم بها وتبناها وصارت، أمي

تعـيش مـع دادتها بمنزله، وطلب لها من الحكومة أن تربط لها معاشـا تعـيش بـه الطفلة التي هي أمي، وتعويضًا مناسبًا أسوة بالضباط والموظفين والصف والعساكر والباشبوزق، وكان الرد لا معاش لها ولا تعويض لأن والدها أي جدي هو السبب في سقوط الخرطوم، تصوري يا أستاذة، يعني في الأول وفي الآخر ظلم من الحكومـة، ولكن ربنا لا ينسى عباده المؤمنين أبدًا. يعني ربنا فتح علـيها، وتزوجت وأنجبتني مع المرحومة أختي وأخي. لكن خلينا في موضوع الجواز. أنا عاوز أخلص من موضوع جواز السفر.

تنهدت وقلت:

ـ آه. خلينا نرجع لجواز السفر!

جلست لآكل طبق كشري بالدقة طبخته عمتي للعشاء، "أصلي بقى لي مدة يا خالدة ناسية الكشري والنهاردة خطر على بالي، قلت أعملـــه وخـــلاص. رغم أن طبخه غلبة على الفاضي". كان لذيذًا بـــالفعل، فقلـــت لها ودون أن أرفع عيني عن سطور كتاب رحت أقرأ فيه:

ـ تسلم يدك ولا غلبة على الفاضي ولا أية حاجة أبدًا. طالع ممتاز.

ثم تابعت القراءة:

"ولمـــا وصـــل عرابي، تفقد علي بك فهمي فلم يجده وأخبره بعـــض الضباط أنه وزع آلاي الحرس داخل السراي ومعه كمية وافـــرة مـــن الذخـــيرة، وأنه على استعداد للدفاع عنها إذا مست الحاجة، فبعث إليه من فوره بالملازم محمد أفندي علي ليستدعيه، فحضر علي بك فهمي فسأله عرابي عن سبب جعله العسكر على أبـــواب السراي ومنافذها من الداخل، ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل فطمأنـــه علـــي بك فهمي وقال له: "إن السياسة خداع"، أي أنه لم يفعـــل ذلـــك إلا لمخادعة الخديو وأنه باق على عهده، فطلب إليه عرابـــي أن يســـحب آلايـــه من السراي ويأخذ مكانه في الميدان،

ففعل. وأمر بخروج الآلاي من السراي، فخرج منها الجند جميعًا، واصطفوا إلى جانب إخوانهم في المكان المعين لهم من الدائرة، ثم تم ترتيب آلاي المدفعية والفرسان والمشاة على شكل مربع، وجاء بعد ذلك الآلاي الثاني من قصر النيل يقوده بعض ضباطه وذلك لامتناع قائده وكبار ضباطه عن الاشتراك في الحركة، ثم جاء الآلاي الثالث قادمًا من القلعة بقيادة البكباشي فودة حسن والآلاي السوداني قادمًا من طرة بقيادة عبد العال حلمي بك".

"إذًا" قلت لنفسي واستطردت: "فلقد كان هناك الآلاي السوداني أيضًا، الله.. حتى في الثورة العرابية كان هناك الآلاي السوداني؟، تساءلت وأنا أفكر، هل ما حدث في المكسيك لجنود هذا الآلاي، كان سببًا في تمرده ورفضه العبودية والاستمرار في التعامل مع الجنود السودانيين والمصريين كحد أدنى وأقل شأنًا من الضباط الأتراك؟، أو كما قال عرابي للخديو: لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولن نكون عبيدًا بعد اليوم".

رفعت رأسي عن الكتاب.. كتاب الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعي، وسألت عمتي وأنا أبلع خلطة العدس والأرز والمكرونة التي ملأت فمي: تعرفي أي شيء عن ثورة عرابي يا عمتي؟، هل تعرفي أن "الأورطة السودانية والتي عاد جنودها من المكسيك إلى الآلاي السوداني، قد شاركوا في ثورة عرابي".

رفعت عمتي عينيها عن المراية التي كانت تتأمل وجهها فيها وتلتقط بعض الشعيرات النابتة في ذقنها وقالت:

ـ ثـورة عرابـي؟، ومن لم يسمع عن هوجة عرابي، وأنا صـغيرة يامـا سمعت عنها حكايات، تعرفي الحاجة خديجة سلفة بنـت عمتي نجاح، أصلها من الشرقية من ميت رزينة بلد عرابي وتقـرب له من بعيد حسب قولها وبيت أهله موجود لحد دا الوقت هناك.

قـررت عمتـي إعـادة دهان الشقة "لأن الحيطان توسخت خـالص، ولونها أصبح يقرف الكلب". كنت أدرك أن عمتي تبحث عـن قضية وسبب لتشغل نفسها. أظن أن هذه المرأة ستعيش حتى آخـر يوم في حياتها تبحث عن قضية وهدف، لملء الفراغ الهائل الـذي يمكـن أن ينفجرَ بداخلها، فراغ مصنوع من السأم والملل وافتقاد بوصلة الوجود. قلت لها: "براحتك يا عمتي"، لكنني سأذهب وأعـيش مع نهال حتى تنتهي من موضوع البياض وتوابعه، أو: "أول ما تنتهي من أودتي، أرجع".

بـالفعل وضعت بعضًا من ملابسي في حقيبة صغيرة وذهبت إلى نهال، تاركة عمتي واقعة في حيص بيص كما يقال.

كنـت قـد قرأت ما تبقى من أوراق عثمان حُفني إلا قليلاً.. أعترف أن عملية القراءة غير سلسة على الإطلاق، فالخط باهت، والتشكيل يكون معوقًا للقراءة (أحيانًا)، لم يكن فيها مايشفي غليلي أو يقودنـي إلـى ضالتي المنشودة. حسابات ومشتروات تخصه، كشـف بمدخرات جمعها من راتبه وينوي الاحتفاظ بها حتى يعود إلـى أهلـه فـي مصر، لا شيء عن عائلته، ولا سيرة لخطابات أرسـلها لهم في مصر مثلاً، لقد أتت جدة رودلفو على كل شيء،

ويبدو أنها كانت تفضل الأوراق المحتوية على معلومات عائلية أكثر من غيرها لتغذي بها نيران طقوسها السحرية وتجنني، حتى ما كتبه عن المرأة الهندية ظل ناقصًا، هل تزوجها؟، هل ظل على علاقة بها؟، هل عاد إلى مصر وتركها؟، لقد ظلت هذه أسئلة مفتوحة لا نهاية لها بالنسبة لي، ولا تجيب عنها الأوراق الشحيحة المتبقية لي من مسلسل "عثمان حفني في المكسيك" الناقص وغير المكتمل، وحتى كوكو سودان كباشي، ضاع مني في نيران جدة رودلفو المستعرة، لكني في الصفحات الأخيرة الناقصة أيضًا وجدت عثمان حفني يكتب ما يلي:

"ولا أدري ما جرى بعد ذلك، إذ اشتد الضرب والقصف علينا من كل ناحية وكأن نيران جهنم فُتحت أبوابها جميعًا لنتلظى بحريقها، فجريت إلى أجمة من الآجام القريبة من محل الأورطة التي كانت قد أفاقت عند هزيع الليل الأخير على ذلك الهجوم غير المتوقع، وصرت أعدو؛ وقد ساد الهرج والمرج، وبلغت الفوضى مبلغها، لا أعرف أميمن أنا، أم ميسر؟، ثم أني اختبأت خلف بعض الأشجار الكبيرة، بعد أن جرح إصبعي جرحًا خفيفًا، ولا أدري أكان ذلك بسبب الضرب، أم بسبب قفزي وعدوي على الحشائش المشوكة والصبارات على أية حال، وربما لشدة الصدمة، رقدت على الأرض وقد سلّمت أمري لله، ويبدو أنني غفوت قليلاً، لأني تنبهت على صوت أنين وألم بالقرب مني، فوجدت امرأة هندية مصابة، تنزف بشدة وكأنها على وشك الموت، فقمت بخلع قميصي بسرعة، وربطت موضع الجرح

منها، وكان في أسفل قدمها اليسرى، وبقيت ضاغطًا عليه، حتى توقف النزف ولاحت تباشير الصباح، وإذا أنا على هذا النحو، والجارية بالقرب مني، وإذ بجماعة من الهنود القتالين قد جاءوا على أحصنتهم وحوّطونا من كل ناحية شاهرين رماحهم في وجهي يبغون قتلي، ثم أنهم حملوا فتاتهم على ظهر أحد الخيول، واقتادوني أسيرًا معهم إلى حيث موضع عشيرتهم وقد توغلوا بي توغلاً كبيرًا في الغابة التي بدا لي أن اتساعها لا حدود له ولا نهاية.

وكنت بالطبع لا أفهم لغتهم، ولا يفهمون لغتي، ثم أنهم قيدوني إلى جذع شجرة، وخرج جمعهم كله من مضارب خيامهم العالية غريبة الشكل للفرجة علي هيأتي.. وقلت لنفسي إنني مائت لا محالة، وقد يشعلون النار بي حيًا، ليأكلونني بعد ذلك، فقرأت الفاتحة وتلوت الشهادتين على روحي، ورحت أقرأ في سري ما تيسر من آيات القرآن الكريم، ويبدو أنهم لاحظوا ذلك، فوقفوا ينظرون إليّ بدهشة ويتطلعون إلى هيئتي وملابسي الغريبة عنهم، بينما كانوا يرتدون من الجلود ما يغطي أجسادهم إلا قليلاً، وكانت النساء عاريات الصدور والأجساد لا يتغطى منهن غير مواضع العفة، دونما خفر أو خجل، لكنهم ويا للعجب، سرعان ما فكوا أسري بعد قليل، وأطلقوا سراحي، فقد جاؤوا إليّ بالفتاة الهندية، التي فهمت منها وبإشارات الكلام معها أنها أوضحت لهم حقيقة ما فعلته معها، وكيف أنقذتها من الموت.

ثم أنهم أقبلوا عليّ مهنئين، وجاء كبيرهم وقد وضع على

رأســـه تاجًا من ريش الطيور الملون الطويل وضمني إليه، وأتى بالإشـــارات المفــيدة والدالة على أنه بات يهش ويبش في وجهي ويرحـــب بي، ثم أنهم دعوني إلى وليمة طعام وتركوني والجارية في موضع مخصوص من الخيمة بمفردنا، وقد تعجبت منها كثيرًا وهـــي تخـــرج مـــن موضع في المكان الذي نحن فيه، بعضًا من الحجارة البيضاء، وقد تبين لي أنها ليست سوى حبات در، راحت تضـــعها في فمها وتقرشها قرشًا وتبتلعها، ثم أنها ناولتني بعضها لأفعـــل مثلها وأنا في غاية العجب والاندهاش، وكأن ذلك ــ كما فهمت ــ دليل محبة ومودة، ثم أنني..".

الوحـــيدة من أقارب نهال، التي مازالت على علاقة بها، ابنة عم لأمها، امرأة عجوز ثرية، كانت أيام ثورة ١٩١٩، وكما تقول نهال من "الجيل الجديد" من النساء، الذى حارب وكافح كي يتعلم، وقـــد حاربت طنط نوران أهلها وإخوتها الذكور السبعة كي تدخل الجامعـــة، وكان هذا من الأحداث الكبرى في عائلتها، فأبوها كان ضابطًا في البوليس وأمها ابنة أحد شيوخ الأزهر وعمدة قرية في المنـــيا، ونجحت في النهاية في دخول كلية الاداب، وسافرت عدة مـــرات إلـــى أوروبا مع زوجها الطبيب، وهي منفتحة العقل ولم تغضـــب عـــندما تزوجت نهال من الرجل الذي أحبته مثلما فعلت أسرتها وبقية أبناء العائلة.

أصـــرت نهـــال أثناء إقامتي عندها، أن أذهب معها وولديها لتلبـــية دعوة طنط نوران لوجبة عشاء. ذهبت، آخر الأمر، رغم إصـــراري علـــى رفض مصاحبة نهال في هذه الزيارة: "ومالي يـــا بنتـــي ومـــال بنـــت عم أمك، ثم أنني وكما تعرفين لا أحب الرسميات والناس المدهونة بالنشا"، ضحكت نهال وقالت: "لا نشا ولا حاجـــة، لـــو عرفـــتِ طـــنط نوران، أفكار كثيرة في دماغك ستختلف.. تعالي والله هي ست بسيطة ولطيفة".

ذهبنا إلى طنط نوران: سيدة بيضاء سمينة نوعًا، بها ملامح من جمال قديم، بيتها، بمنطقة الكوربة بمصر الجديدة، واسع بحيطان عالية ومعمار أوشك على الانقراض بالقاهرة، أثاث البيت معمول بفن وذوق أيام زمان، غرفة السفرة التي جلسنا لنتعشى بها من خشب جوز محفور يندر وجود مثلها الآن، وهناك طباخ عجوز وخادمة تضاهيه في العمر، يقدمون لنا أكلات مصرية مميزة، وفجأة خطر لي أن أداعب عم منجلي الطبّاخ:

ـ أنت من أي بلد يا عم منجلي في السودان؟

ـ وادي حلفا.. رد باقتضاب.

ـ وأنت في مصر من زمن؟ قلت.

وردت طنط نوران هذه المرة:

ـ أنا طلعت لقيته في البيت من صغري هو ومال. (تقصد الشغالة). أما عم منجلي فقال:

ـ في مصر أبًا عن جد. أصل أبويَ كان في الجيش وجدي كان في الجيش زمان وطلعت لقيت أهلي كلهم هنا.

ـ آه. قلت وأضفت:

ـ يعني جدك حارب في الجيش؟

ـ آه. حارب زمان، سافر وراح فرنسا وعنده نيشان كبير.

ـ وأنت شفت جدك؟ تساءلت.

ـ لا. أبويَ حكى لي عنه، وهو كان أسد في الحرب، مرة ضرب بسنكة واحد في الحرب ورفعه فوق والسنكة غارزة فيه وشاله لفوق.. أبويَ حكى لي.

ـ ومن أعطاه النيشان؟

ـ آه. هو راح باريس بعد الحرب و..

ـ الحرب في أي بلد؟.. قاطعته.

ـ الحرب في بلد بعيد خالص، ولما خلصت راح باريس مع كـل العسـاكر وأخذوا نياشين من الملك هناك وانبسطوا خالص وكان أبويّ عنده نيشان، وهو قال لي أنهم أخذوا من الفلوس كثير وكان النيشان "لاكروادى لاليجيون دونور".

ضحكت وقلت له:

ـ يا سلام. أنت بتعرف فرنساوي؟

ردت طنط نوران:

ـ ومـال كمـان عارفة لها كم كلمة فرنساوي، لكن منجلي يعـرف فرنسـاوي أحسن منها لأنه وهو صغير دخل لمدة ثلاث سـنين مدرسة فرنساوي، أصل حكايته حكاية، أبوه كان ميسورًا وكـان في الجيش، ولكن صرف فلوسه كلها في موضوع غريب خـالص. واحـد صاحبه اتفق معاه على أن يحفروا وينقبوا على الآثـار في الصحراء وظنوا أن الذهب والكنوز مدفونة فيه ولكن نقـبهم طلع على شونه. منجلي وإخوته اشتغلوا بعد ما افتقر أبوهم وأنا طلعت لقيته هنا.

سكت منجلي قليلاً، ثم أضاف وكأنه يتذكر شيئًا.

ـ شـوف. جـدي شـاف الخديو في مصر بعد شوقته لملك فرنسـا وهـو وصـل إسكندرية مع الجيش، وراحوا قصر التين وعملوا حفلة كبيرة للضباط والعساكر هناك، وكانت هيصة كبيرة

جدًا ومزيكة وزمر وطبل، وأكل ملوكي. يا سلام.

قلت بدوري:

ـ يا سلام!

وأوشكت أن أمطره بمزيد من الأسئلة وأنا أفكر: هل يمكن أن يكون لديه معلومات عن عثمان حُفني من خلال جده؟. يبدو أن جده ولابد ـ وفقًا لما قاله ـ قد حارب في المكسيك، وإلا لماذا ذهب إلى فرنسا ليكرموه ويحصل على نيشان؟، في أي الحروب يمكن أن تكرم فرنسا جنديًا مصريًا أو سودانيًا؟، حرب ١٩٤٨، أم حرب ١٩٦٧، أم في الحرب الضارية التي شنتها على مصر بعد تأميم قناة السويس بالاشتراك مع إنجلترا وإسرائيل عام ١٩٥٦، لا، إنها بالضرورة حرب الأورطة المصرية في المكسيك.

كان عم منجلي مازال واقفًا يحمل بيديه طبقين ممتلئين بكفتة داوود باشا، وبدا كمن يتذكر أمرًا إذ قال فجأة:

ـ أصل العساكر السودان هاربوا في حتت كتير خالص ومن زمان جوّه وبره وحتى مع المهدي، وحتى في بلاد بعيدة خالص.

ـ آه. قلت. وأضاف:

ـ وحتى مع عرابي باشا.

ـ سمعت حكايات كتيرة من أبويا. كنت عارفه كله وحافظه كويس، لكن نسيت. نسيت وأبويَ مات من ثلاثين سنة بعد أن رجع وادي حلفا و..

يبدو أن صبر طنط نجوان قد نفد لأنها قالت وهي تنفخ:

ـ حط الأكل يا منجلي قبل ما يبرد. وهات معك علبة الفوار.

محطوطة عندك على الكومودينو جوه جنب السرير.

رحت أبتلع الطعام: كفتة داوود باشا ومحشي ورق عنب وكوسا، وبامية في الفرن، وأنا أفكر في أولئك الذين حاربوا مع جيش عرابي، وأولئك الذين حاربوا مع الإنجليز ضد المهدى، قلت لنفسي لابد أن أبحث عنهم، سأسأل واحداً من المتخصصين في التاريخ، فربما يقودني إلى حكايتهم..

تنبهت بينما كنت أحادث نفسي على صوت نهال وهي تقول لي:

ــ مالك. سهمتِ وسكتِ. كلي وخليكِ هنا.

- ذات صـباح وبيـنما كنـت في طريقي إلى مكتب المحاماة، فكـرت فـي القيام بمغامرة مجنونة، أن أحمل نفسي في صباح مماثل وأركب القطار إلى سوهاج وأذهب بنفسي إلى الحفن وأسأل عـن عائلـة رودلفو، عائلة عثمان حفني، وأحل المشكلة بنفسي، فلابـد وأن يكـون هناك من يعرف عائلة عثمان حفني، ولابد أن تكون له بقايا عائلة، ذرية وأحفاد وأقارب ما في هذا المكان.

نهـال التـي أفضـيت لها بما أنتويه ضحكت وقهقهت، وأنا أشـرح لهـا السيناريوهات المتخيلة لما سوف يحدث لي في بلدة عثمان حفني.

سـيناريو أول: أسـأل عـن العمدة وأذهب إلى بيته مباشرة وأطلب منه مساعدتي في التوصل إلى حقيقة الرجل.

سيناريو ٢: الذهاب إلى قسم الشرطة وشرح المشكلة لرئيس القسم أو النقطة وهو لابد أن يقوم باتصالاته ويساعدني.

سيناريو ٣: أن أسأل بعض الأهالي بنفسي مباشرة ولابد وأن يعرف عائلته شخص ما من العجائز بطريقة أو بأخرى، أو يكون سمع عنه مثلاً.

نهـال علقـت وهي مازالت تضحك، بأنني أفكر وكأنني لا

أعيش في هذه البلد ولا أعرف عنها شيئًا "هل تتصوري أنهم في قسم الشرطة سيستقبلونك بالورود، أو أن العمدة سيأخذك بالحضن على دق الطبل والمزمار؟، هل البوليس فاضٍ لحضرتك ولصاحبك رودلفو؟. سبحان الله، يعني لو لم تكوني محامية وفاهمة البلد ومعايشة لظروف الشغل في البوليس، كنت فهمتك، شيء غريب! عارفة: أبسط سؤال يمكن أن يوجّه لك هو وما علاقتك أنتِ بالموضوع؟. طيّب ولو أخبرتيهم بموضوع الأوراق، ربما أخذوها منك واعتبروها مخطوطات قديمة أثرية ولا يجوز لكِ الاستحواذ عليها، والحقيقة يا بنتي، ربما يعتبرونك هبلة أو مجنونة في أفضل الأحوال، يعني الحكاية كلها مرفوضة على كل المستويات، لا تدخلي نفسك في مشاكل ووجع دماغ، خلاص. أنتِ قرأتِ الأوراق كلها، قولي لرودلفو عما وجديه فيها من معلومات واتركيه يتصرف.

– لكني وعدته بأن أبحث له عن جدّه وأصوله العائلية.

– يعني أنتِ مغسلة وضامنة جنة. والله أنا حاسة أن موضوع جده سبوبة. يظهر أنك واقعة في غرام الأخ رودلفو.

وضحكت بخبث.

– لن أرد على كلام من هذا النوع لأنك سيئة الظن، ولكن لم لا، هو ظريف، أنا مستلطفاه، ولكن لا أقول وقعت في غرامه. نهال.. الموضوع أصبح عندي أكبر مما تتصوري، أنا أريد أن أعرف كل شيء عن عُثمان حفني وعما حدث له. أنا متعاطفة معه جدًا ومتعاطفة أكثر مع كل عساكر الأورطة وأولهم كوكو

سودان.

ـ مَن؟!. تساءلت بدهشة.

ـ كوكـــو سودان كباشي. أنت لا تعرفينه، لكني أحببته جدًا، ومتعاطفة معه إنسانيًا، أريد أن أفعل شيئًا بهذه الأوراق، شيئًا أهم من رودلفو ومن الغرام الذي تظنينه. طيب ما رأيك أن أذهب إلى سـجلات القلعة، أو مصلحة الأحوال المدنية في العباسية، وأكشف عن أصله بالكمبيوتر؟

ردّت بلهجة مهنية جادة:

ـ لازم أن يكــون عندك الاسم الثلاثي وأنت لا تعرفين عنه أي شيء غير اسمه الأول فقط.

لــن أذهب إلى الحفن، ولن أبحث عن عثمان وعائلته ولكني قررت كتابة خطاب طويل إلى رودلفو:

"عزيزي رودلفو

هـــل تعرف كوكو سودان كباشي، هل سمعت يومًا عنه، أو عـــن خليفة سودان وبخيت خميس، وكودي الفيل، وسعير الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وأنجلو حبيب الله وغيرهم من أنفار الأورطة التي سافر معها جدك إلى المكسيك، ليحاربوا مع فرنسا، ضد أعدائها من المكسيكيين هناك. لقد كان كوكو سودان فتىً يافعًا يلهـــو ذات صباح في الغابة الاستوائية الرائعة، ربما كان يحادث العصـــافير أو يختبئ من نمر كاسر، أو يمتطي ظهر فيل متكاسل أثـــناء مـــروره بالغابـــة، وفجأة انقضت عليه عصابة حقيقية من الوحـــوش فـــي هيئة بشر متمدنين، كانوا في الحقيقة جماعة من تجـــار العبـــيد، يعملون لصالح والي مصر، أو ملك الإنجليز، أو إمـــبراطور فرنســـا، لا يهم كل ذلك، المهم هو أنهم سرقوا كوكو وصـــادوه صـــيدًا، أبعـــدوه عن عالمه، ليبيعوه في سوق النخاسة وســـرعان مـــا ألقـــى بـــه بعـــد ذلك في عالم غريب، عالم قاس ومـــتوحش، يعمل لحسّاب عصابة مسلحة، مهمتها إبقاء جماعة أو عصـــابة أخـــرى بشعة في سلطتها ونفوذها، لم تكن هذه العصابة المسلحة غير الجيش الذي أجبر كوكو وغيره من زملائه على أن

يكونوا جنودًا وأنفارًا فيه.

لقد سُفِّر كوكو إلى المكسيك مع رجال آخرين كثيرين، وكان معهم جدك الشيخ عثمان لمباركتهم والصلاة بهم والترحم عليهم بعد موتهم، وهناك ذهب الجميع إلى أرض لم تطأها أقدامهم من قبل ولم يذهبوا إليها طلبًا للرزق أو فرارًا من جريمة ارتكبوها، ولكنهم ذهبوا ليحاربوا مع عبيد آخرين، من الجزائر، وعبيد من جزر الأنتيل، ويكونوا وقودًا لحرب قذرة، لأجل أن يحصل ملك فرنسا على مزيد من نبيذه الفاخر في كأسه الكريستالي ويتمكن من مصّ دماء عبيد آخرين لن تغيب آثار دمائهم المسفوحة عن أطباقه وأوانيه الفضية أثناء الطعام، ولكي تتمختر امرأته وأمثالها في أثوابها الحريرية الفضفاضة.

أنت لا تعرف كوكو سودان وأمثاله، لا تعرف حكايتهم الحقيقة، مثلما كنت أنا لا أعرفها من قبل، فشكرًا لك لأنك قدتني، دون أن تدري لمعرفتهم.. لقد كان بحثك عن جدك يا رودلفو هو الخيط الأول الذي قادني إلى قضيتهم، وهو المفتاح الذي فتحت به عالمًا سحريًا غامضًا لم أكن أعرفه من قبل، لقد قرأت أوراق جدك كلها، ولم أعرف من هو ولا يوجد في الأوراق ما يدلني على بقائه في المكسيك أو عودته مرة أخرى إلى مصر، ولكن، وجدت فيها ما دلني وقادني إلى معرفة الكثير عن العالم الذي أعيش فيه.. هل قلت لك مرة أنني بت أنتمي إلى واحدة من جمعيات حقوق الإنسان في مصر؟ لا أدري، على أية حال فقد بت أتشكك في جدوى الانتماء لواحدة من هذه الجمعيات، فما الذي

تفعلـــه، أو بالأحـــرى ما جدوى الذي تفعله في هذا العالم الوحشي الذي نحياه، أشعر الآن، وبعد قراءتي لأوراق جدك، كم هو ضئيل ما تفعله هذه الجمعيات ، وكم هو محدود مقارنة بما قرأته في هذه الأوراق من ظلم صارخ ولا إنسانية فاضحة.

الآن يـــا رودلفـــو بدت لي قضية محمد عبد الحفيظ بركات، قضية باهتة، لا تستحق كل ذلك الحماس الذي أوليته لها ذات يوم مقارنة بقضية كوكو سودان وزملائه.. آسفة، أنت لا تعرف قصة محمـــد عبد الحفيظ بركات لكني سأسردها عليك ذات يوم إن قدر لنا الالتقاء مرة أخرى.

بــدأت أشــعر منذ شهور طويلة، ولأول مرة، براحة داخلية عمــيقة، ونــوع مــن السكينة وبرغبة حقيقية في النوم، كما بدت شهيتي للطعام تزداد مرة أخرى.

كنت قد غادرت الإقامة الإجبارية في بيت نهال، وعدت إلى بيتــي مرة ثانية، بعد قضاء أسبوعين ممتعين معها ومع والديها ـــ غايــة في الشقاوة والظرف ـــ وكانت عمتي قد أعلنت لي تليفونيًا أنهــا انتهــت تمامًــا من أعمال الطلاء، "وكل شيء رجع مكانه والشــقة صــارت زي الفل، وتعالي يا حضرة البرنسيسة وبطلي الدلع الماسخ".

استقبلتني عمتي بترحاب ومفاجأة، فقد غيرت لون شعرها إلى البني الداكن، أثنيت على ذوقها الرفيع هذه المرة: "خليكِ في البني الغامق على طول يا عمتي لأنه حلو عليكِ ويمشي مع لون عينيكِ ويناسب سنك".

تمــددت في سريري بسعادة حقيقية، وفرحت بنظافة الحيطان وإشراقها باللون الأبيض سن الفيل، ورحت أتمطى وأتثاءب كجرو مبتل خرج لتوه من الماء وقبع في الصباح يتمشى. نمت بسرعة، وكنــت لــم أنم جيدًا في اليوم الفائت إذ سهرت مع نهال ووالديها

نلعب كوتشينة: الكومي، والشايب وشلّح، وكنت قبل أن أنعس أفكر في كوكو سودان وعثمان حفني، والخطاب الذي سطرته لرودلفو، والهنود، وجمعية حقوق الإنسان، والعالم الغريب القاسي الذي أعيش فيه، وسرعان ما غلبني النوم لأرى فيما يرى الحالم، بأنني داخل محكمة من المحاكم التي أدور عليها أثناء عملي. لا أدري، أكانت محكمة الاستئناف العالي، أو مجمع العباسية، أم محكمة عابدين. كنت جالسة مع زملائي ننتظر دورنا في الرول، كنت قلقة وعصبية، أجز على أسناني حيناً وأعض شفتي حيناً آخر، بينما زميلي يقرأ في مجلة ميكي وأنا أترجاه " وحياتك يا سيد أعطني صفحة واحدة أسلى نفسي بها وأرجعها لك تاني " لكنه كان يرفض بعناد طفولى أغاظنى ، وعندما جاء دورنا ودخلت إلى قاعة المحكمة حيث تنظر قضيتنا، فوجئت بكوكو سودان يترأس منصة القضاء وحوله مجموعة من العساكر السودانيين، يرتدون الزي ذاته: البزّات الأنيقة ذات الياقات القصيرة والأزرار المصطفة، والغريب أنني لاحظت أن كوكو كان قد بدا عاريا تماما اللهم إلا من قطعة من جلد النمر تستر عورته وقد فتح أزرار روب القضاء الأسود عن أخرها، كما كان هناك عصفوران ملونان غاية في الروعة يقف كل واحد منهما على كتف من كتفيه، أما رأسه فقد تغطى بتاج من زهور النرجس الأبيض البديع.

فوجئت بأن حاجب المحكمة هو محمد عبد الحفيظ بركات، كما رأيته عندما جاء أول مرة لننظر مشكلته ونرفع له قضيته،

الأنـــف الضخم والعينان الواسعتان المدهوشتان . مفاجأتي الكبرى كــــان عثمان حنفي شخصيا، فقد بدا لي شيخا جليلا، طويلا، داكن اللـــون، حلو القسمات وقد جلس مرتديا كامل زيه الديني: العمامة البيضاء على رأسه، والجبة والكاكولا على جسده .

ثـــم إنه تم النداء على المتهمين، وإذا بى أرى شخصا أجنبيا، سمعت من يقول أنه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، وكان يحمل كأســـا كريســـتاليا ضخـــما من النبيذ فى يده ، بينما تراصت فى أصـــابعه الممســـكة بالكأس عدة خواتم ضخمة من الفضة، وكان يـــرتدى بـــزة حمـــراء فاقعة موشاة بشراشيب ذهبية لامعة عند الأكتاف، وفى أعقابه دخل بقية المتهمين في قفص الاتهام، الخديو ســـعيد والخديـــو إســـماعيل (عرفتهما فورا لأني كثيرا ما رأيت صـــورتيهما مـــنذ صغرى في الكتب المدرسية وفى متحف قصر الجوهـــرة بالقلعـــة) وما أن تم إغلاق القفص على الثلاثة، حتى بـــدأوا يلعـــبون لعـــبة طالمـــا لعبتها مع أبى وعمتي عندما كنت صغيرة، لعبة أسمها "صلح"، فكان أحدنا يقف وخلفه بقية اللاعبين، ويمـــد يـــده ليقوم واحد من الآخرين بضربه عليها بلطف، وعلى الواقف فى الأمام أن يكتشف بنفسه ودون أن يستدير من الذي قام بضربه.

عـــندما تـــم الـــنداء على ممثل النيابة ، فوجئت بشاب فلاح يرتدى ملابس الجيش، يتقدم إلى موقعة بالمنصة، كان شديد الشبه بأبـــي، لدرجة أن قلبي أخذ في الخفقان بمجرد أن رأيته، وتمالكت نفســـي حـــتى لا أجـــرى إليه وأحتضنه، وعندما صار في موقعه

ليـــتر افع، بدأ خطابه بحماس شديد، وقال كلاما إنشائيا كثيرا طالما تعـودت علـــيه فى قاعات المحاكم، مما دفعنى لأن أغفو للحظات ولكننى تنبهت عندما وجدته يقول:

" وفى اليمن أيضا تم الزج بأبناء مصر الأبرار ليكونوا وقودا لحــرب لا ناقـــة لهم ولا جمل فيها، وليموت الآلاف منهم هناك، ولقـــد كنت أحد ضحايا هذه الحرب حتى بصوا. ثم إنه رفع ساقه اليسرى أمام جميع الحضور وشمر عنها بنطاله، فتطلعت إلى تلك الساق مثلما تطلع الجميع، واكتشفت أنها ساق ماعز ليس إلا.

واستمر ممثل النيابة فى مرافعته قائلا:

" وهـــؤلاء المجـــرمون جميعا يجب ألا تأخذنا بهم رحمة أو شـــفقة، أو نظـــن أنهـــم من الذين يلعبون الصلح للمتعة وتزجية الوقـــت، لا. فهـــؤلاء إنما هم وحوش قتلة. انظروا إلى ذلك الذى يعـــب النبيذ منتشيا (أشار إلى نابليون الثالث)، إنه فى الحقيقة أفاق مغـــرور، طالمــــا رغب في التباهي داخل المحافل الدولية وراح يبحـــث له عن prestige بين أمثاله من خلال تحقيق انتصارات علـــى حساب آلاف الأبرياء، ويدفعهم إلى الموت دفعاعلى نحو لا إنسانية ولا رحمة، ثم ذلك السعيد (يقصد الخديوى سعيد) الذى ما فكـــر يوما فى أبناء شعبه المسكين، الشعب الذى حمله الأمانة ولم يصـــنها ولـــم يتمـــثل القول الكريم "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيـــته". ثـــم ذلك السمين التافه، محب الظهور والفشخرة، والذى أسال دماء أبناء الوطن وسفحها أموالا تحت أقدام أوجينى عشيقته دون أن يحســـب حســـاب أولـــئك البســـطاء الذين ماتوا من الفقر

والجـوع والتعب عندما حفروا قناة السويس من أمثال محمد عبد الحفيظ بركات (وهنا صاح محمد عبد الحفيظ: خدامك ومحسوبك يـا سعادة الباشا). أجل أقول محمد عبد الحفيظ بركات وأمثاله من الملايين أبناء هذا الشعب العظيم يا حضرات القضاة، إننى أطالب باسـم الشـعب وباسم العدل وباسم كل الشرائع السماوية الإنسانية الكـبرى التى ما تمثلها وما وعاها ذلك المغرور القابع فى القفص (أشـار إلـى نابلـيون الثالث)، والذي لم يعمل يوما حتى حسابا لمـبادىء الـثورة الفرنسية العظيمة في العدل والإخاء والمساواة، أطالـب بتوقـيع أقصى العقوبات عليه، وعلى هذين المستهترين اللذين يلعبان معه الآن "صلح"، غير عابئين بغضب الجموع وغير محترميـن لوقار المحكمة، وتوقها لتحقيق العدل الذي هو شريعة السماء قبل أن يكون شريعة الأرض.

ثم أعلن رئيس المحكمة بعد انتهاء ممثل النيابة من مرافعته، رفـع الجلسة لمدة عشر دقائق للمداولة، على أن تستأنف بعد ذلك للنطق بالحكم.

خرجت من القاعة مع زملائي خلال الاستراحة لنشرب شيئا ونـتداول بدورنـا فيما حدث، وفي هذه الأثناء جاءت نهال وهى تضـع عمـة كبـيرة علـى رأسها، جعلتني لا أتمالك نفسي من الضـحك، وكانـت تحتسى القهوة وقالت أن جمعية "نصرة الحق الإنسـاني" التى أنتمي إليها، ستقيم ندوة في فندق المريديان مساء اليوم "موضوعها حق المواطن في أكل القثاء المحلولة"، وأن ذلك سـيعقبه مولـد كبـير في الفندق بمناسبة مرور سنة وربع على

تأسـيس الجمعية" ولازم تحضري يا خالدة. تصوري جابوا سبعة خـرفان وعجـل وعاملين فتة بلحمة، وسيتم خلال المولد تزويج ثلاثـة من أبناء رئيس الجمعية على ثلاثة من بنات رئيس جمعية حقوق إنسان أخرى"

قلـت: سـيدي يـا سيدي، ربنا يهني سعيد بسعيدة، لكني لن أحضرفقد قرفت من كلام جمعيات حقوق الإنسان الفارغ، فهو لا يجيب ولا يودي. روحي أنت لوحدك.

عدنـا للقاعـة مرة أخرى، فصاح محمد عبد الحفيظ بركات: محكمـة، وبعدهـا اندفع محامى الدفاع عن المتهمين في كلامه، وبالدهشتي كان شخصا سمينا ذا وجه أحمر منتفخ ويرتدي ملابس مهـرج سـيرك وعلى أكتافه سبليتان ذهبية بشرابات وكأنه ملك، فهمسـت لنهال من هذا، وكانت تجلس بجانبي، فقالت لي بهدوء: ألا تعرفيـنه، إنه الأرشيدوق مكسيميليان حاكم النمسا، همست لها مرة أخرى وما علاقته بهذه المحكمة، فضحكت بصوت عال حتى أن رئـيس المحكمـة كوكو سودان خبط على المنصة بالشاكوش وقـال: هـش كلـه يسكت، وإلا كله يخرج بره وأنا أزعل منه، واستمرت نهال تهمس في أذنى بصوت خفيض "كان هو ونابليون الثالث حلفاء في الحرب"

بـدأ مكسـيميليان مرافعته عن المتهمين بالاعتذار لأنه كان منشـغلا بحفـل اسـتقبال وأن الفالس كان رائعا وعزفوا الدانوب الأزرق لشـتراوس والأوركسـترا كانت أكثر من ممتازة، ثم أنه أخـرج من جيبه منديلا أحمر كبيرا وكأنه سيصارع الثيران، وبدأ

فـــي الـــبكاء وهو يقول: والله حرام تعملوا في جيبى كده. نابليون عزيـــزي إيـــاك تـــزعل. كله سيكون بخير إن شاء الله. لكن كل المشـــكلة أنـــت قاعد تلعب مع ناس بزرميط، إبعد عنهم لأنهم هم ســـبب المشكلة. أصلهم بربريان. أرجوكم أتركوا صديقى. أتركوا حليفـــي. كوكـــو سودان، أنت أسود بربريان، غير متحضر. أنت لازم أن تكونٍ عبد خادماً لنا. كوكو سودان أنت لازم تموت لأجل نابلـــيون ولأجل مكسيميليان ولأجل كل رجل أبيض يعيش مبسوط ومستريح. كوكو سودان كل واحد مثلك لازم ينتهي من الدنيا. وأنا ونابلـــيون ونـــاس لونهـــم أبيض يكونوا فيها وبس. مفهوم. كوكو سودان .. أنت ..

فوجئـــت بمـــن يهزني هزاً عميقا. فتحت عيني لأرى عمتي واقفة بجانب السرير وهي ترتدى تاييرها الأسود الطويل.

- يعـــنى يا خالدة تروحي في سابع نومه من ساعة العصر لحـــد الساعة سبعة. أنا طالعة للعزاء. أصل سنوية عادل ابن طنط ســـميحة فوزى حل ميعادها. يا عيني مرت عشر سنوات بسرعة علـــى موتـــه في حفر الباطن، الشاب اتخطف منها وأمه مازالت تتحسر عليه كل يوم. الله يصبرها.

ورقة أخيرة

مـــرت شهور وبدأت أنسى قصة رودلفو وعثمان حنفي. وفي أحد الأيام، وبينما كنت جالسة أتعشى مع عمتي، قالت لي فجأة:

ــ نســـيت أقــول لك، لقيت ورقة قديمة وقت ما كنا بنوضيب الشـــقة ونبيضـــها، حطيتها وقتها في كتاب من كتبك، وقلت يمكن تلزمك وتكون ضرورية.ووقعت منك وأنت ساهية عنها.

ثم قامت عمتي ودخلت حجرتي وعادت بورقة وبالدهشتي، اكتشفت أنها من أوراق عثمان حنفى، وقالت:

– قلت لك خمسين مرة بطلي تتركي الكتب والأوراق على السرير وتنامي، لأن واحدة منها تروح هنا ولا هنا وأنت لا دارية وتبقى مشكلة.

لم أرد عليها، أخذت الورقة من يدها بسرعة ورحت أقرأ، كانت الورقة مرقمة بالرقم ١٠٢، وقد قرأتها بصعوبة لأن حروفها بدت باهتة جدا ويبدو عليها آثار ماء، أو دموع أو شيء من هذا. لا أدري "مازلت مترددا في أمري، أعود أو لا أعود، هنا كل شيء يسير على ما يرام، أزرع مع امرأتي الأرض ونأكل من خيراتها، وهؤلاء الهنود طيبون ولديهم قيم ومثـــل وأخـــلاق لا

تشوبها شائبة والمرأة ممتعة حقا وتقوم بواجباتها معي خير قيام وهى حسنة المنظر ولود لا أطيق البعد عنها ليلة واحدة وقد تعودت على طباعي غير أنها ترفض التقبيل أثناء المجامعة، وقد صفعتني بشدة على وجهي، عندما حاولت معها ذلك لأول مرة وكدت أن أضربها بدوري لولا دهشتي التي منعتني عنها، وقد فهمت نها بعد ذلك أن التقبيل من المرفوضات المحتقرات لدى هؤلاء الهنود، ومن الأمور التي لا تجوز، لكن ما عدا ذلك فكله مباح ومن حسن الحظ أنها ولود، أنجبت البنات والبنين، صحيح أنهم كلهم ماتوا، ولم تبق منهم إلا واحدة هي قرة عيني ومهجة فؤادي فاطمة والتي سميتها تيمنا باسم أمي، وهنا ينادونها بفاطو أو فاتو، لأنهم لا ينطقون الطاء إلا مخففة وكأنهن تاء. وعلى رغم كل ما أنا فيه من طيب عيش، إلا أن حنينًا هائلاً، وشوقا عارما يأخذاني إلى الوطن، فأنا مازلت أفكر في أهلي وبلدي وأحلم بهم وبها كل يوم في مناماتي، وتواتيني بها تفاصيل وشذرات من مشاهد طفولتي وهناءتي بها، وعندما تسح دموعي، وتفيض شجوني، خصوصًا عندما يسكن الليل وينام الجميع، أقول لروحي: غدًا يا ولد تحزم أمرك وترتب للسفر والعودة إلى ديارك مرة أخرى، ولتحملك واحدة من السفن المسافرة إلى طولون أو غيرها من المدن التي توصل بين هنا وبين الديار وما أكثرها على البحر الرومي، وأنت لا يعوزك المال ولا ينقصك شيء، ولسوف تكون عودتك مفاجأة للجميع، الذين ظن أكثرهم أنك مت وفنيت في هذه الفرضة البعيدة من الأرض، ولكن عندما أصل إلى هذا

الحد من التفكير أيضًا، أقول لنفسي: ولكن إلى أي عالم تعود، أتعود إلى أولئك الذين يتحكمون في مصيرك مرة أخرى، ويقذفون بك إلى حرب أخرى، وعالم مجهول؟، أتعود لتلقى وتكابد مثل ما لاقيته وكابدته في رحلتك إلى هنا؟، أتعود لتشهد مثل ما شاهدت من مآسي وآلام، وفظائع، تتمنى لو أن ذاكرتك تمحوها محوًا حتى تنساها إلى الأبد؟. أتعود لعالم شرير يأكل فيه القوي الضعيف، ويتسلط فيه بشر على أرواح بشر؟، هنا أنت بعيد عن كل هذا، أنت تعيش حياة مسالمة مع هؤلاء البسطاء الذين يكرمونك ويجلونك ويعاملونك معاملة الأخ والوالد والابن، فلم الحماقة والتهور، ولما لا تقنع بما كتبه الله لك وما أنعم عليك به من نعم؟. وهكذا مازلت حائرًا مترددًا، لا أكف عن البكاء في بهيم الليالي، والنجوم فوقي شاهدة، والأفق أمامي ممتد بلا حدود، وأظل أفكر وأتساءل: أأعود أم لا أعود؟!

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - اسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٢٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

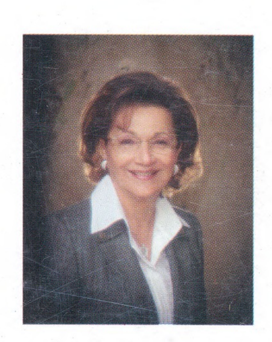
٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذى يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقًا أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة متجددة المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه فى الحياة، ففى ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتى أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك







الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774204201

١,٥٠ جنيه

مكتبة الأسرة ٢٠٠٨